الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٠٨ — ٢٩ يوليو سنة ١٩٣٥ — السنة الثالثة

3 me Année, No. 108.

Lundi-29-7-1935

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع المبدولي رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ١٠٨ « القاهرة في يوم الاثنين ٢٨ ربيع الثاني سنة ١٣٥٤ — ٢٩ يوليو سنة ١٩٣٥ » السـنة الثالثة

فهرس العـــدد

٢ ـ محمد حافظ ابراهيم

بمناسبة ذكراه الثالثة



كان حافظ في ميعة شبابه يطلب الثروة على قدر طموحه، والحظوة على قدر نبوغه؛ ولكنه طلبهما من طريق الحق الذي يدعيه كل شاعر على الناس، لا من طريق الواجب الذي يؤديه كل إنسان إلى المجتمع. فلما أخفق بالطبع لم يرد أن يعيش كما يعيش سائر الناس على العمل الميسور، وإنما ارتد ارتداد الأنوف المحتج إلى الفلاكة الشاعرة الصابرة، يحمل بؤسه على « حرفة الأدب » كما يحمل المؤمن رزءه على حكمة القدر؛ ثم عاش عيش الطائر الغرِد: عمره ساعته، ودنياه روضته، وشريعته طبيعته، ودأبه أن يطير في الغيم والصحو،

ويشدو فى الطرب والشجو ، ثم يسقط على الحَب أينما انتثر !

ولقد كان من جريرة هذه الحياة النابيــة العقيم التى حَيِيَها حافظ أن قتلت فيه الطموح فلم ينشــط إلى سعى ، وأذهلته عن الغاية فلم يسر على مبدأ ، ووقفته على الشاطئ فلم يتعمق فى فلسفة ، وشغلته عن الدرس فلم يتكمل بثقافة . كان مبـدؤه الأدبى مبدأ اليوم ، كما كانت حياته المادية حياة الساعة : رأى الآمال تتهافت حيناً من الدهر على أريكة الخديوية فى مصر ، وعرش الخلافة فى الآستانة ، فجرى لسانه بالشعر المطبوع فى مدح عباس وتمجيـد عبد الحميـد ؛ ثم اتصل بالامام وشيعته من سراة البلاد وشيوخ الأمة ، ولهم يومئذ فى الانجليز رجاء موصول وظن حسن ، فصدرت عنه فى هذه الفترة قصيدة فى رثاء الملكة ڤيكتوريا ، وقصيدة فى تتويج الملك إدوار السابع ، وقصـيدتان فى وداع اللورد كرومر ، عبر بهما عن الرأى السياسى الارستقراطى فى ذلك الحين ؛ ثم خلص للشعب فلابس دهماءه وخالط زعماءه ، واندفع بقوة الوطنية الدافقــة الشابة إلى لواء مصطفى ، فمزج شكواه بشكوى البلاد ، وضرب على أوتار القلوب أناشيد الجهاد ، ونظم أمانىّ الشباب من حبات قلبه ، وترجم أحاديث النفوس ببيان شعره ؛ ثم عطف عليه الوزير الأديب حشمت باشا فأكرمه بالعمل فى (دار الكتب) ، وأجزل له المرتب طمعاً فى مواهبه ، وثواباً على فضله ؛ ولـكن الشاعر حمل الوظيفة على باب المكافأة المفروضة فاستراح للخفض ، واستنام للدعة ، وفتر عن قول الشعر إلا مدفوعاً إليه من فترة إلى فترة ؛ فلما خرج على (المعاش) انضوى إلى أعلام (الوفد) ، واتصل بالزعيم اتصال النديم ، وحاول أن يبعث فى نفسه الشعر الوطنى ، ولـكنه كان قد أضْنى . . .

* * *

وكان فكر حافظ فيضَ الشعور وعفو البديهة ، ينشأ فى الكثير الغالب من آراء المجالس ، وأقوال الصحف ، ومخزون الحافظة ، فلم تُمنه حياته على التروية ، ولم يدَعْه اضطرابه إلى التأمل ، ولم تطلقه قيوده إلى الطبيعة ، وإنما ظل صنيعة لوحى البيئة ، وإلهام الفطرة ، وتوجيه المناسبة ؛ فهو فى قصائده للإمام يذكر تعلق الناس بالأباطيل ، وتهالكهم على عبادة الموتى ، ولا يزيد فى ذلك على نقد الامام ونعيه ؛ وفى قصائده لقاسم يذكر الحجاب والسفور بما لا يخرج عن مذهبه ورأيه ؛ وفى قصيدته التى أنشدها فى احتفال مدرسة البنات ببور سعيد يتكلم فى تعليم الأم وسفور المرأة وعيوب الجماعة بما لا جديد فيه ؛ وفى قصائده التى نظمها فى مشروع الجامعة وافتتاحها يجمل ما فصلت الصحف من الموازنة بين الاكثار من الـكتاتيب وانشاء الجامعة ؛ وفى رثائه لتولستوى يذكر السلم والحرب ، والخير والشر ، والغنى والفقر ، بمـا لا يبعد عن متناول الناس ، ولا يرتفع عن مستوى الجمهور ؛ من أجل ذلك كان فـكره مستقيما لا ينحرف ، وواضحاً لا يلتبس ، وسديداً لا يطيش ، والسر فيه اعتماده على قوة الاجماع ، لا على غرابة الابداع

* * *

وكانت ثقافة حافظ ثقـافة الشاعر العربى الأول : يتزود لمجالس الملوك بالأخبار والطُّرَف ، ولمحافل الأدباء بالأشعار واللغة ، ويستعين على ذلك بسلامة الذوق ، وصفاء الطبع ، وقوة الحافظة ، وكثرة الاطلاع ، وجودة الاستماع ، وإلحاح الحاجة ؛ ولحافظ فى كل أولئك موضع منفرد ومكان بارز

عكف منذ شب على دواوين الشعراء وأجزاء (الأغانى) يتنخَّلها ، ويتمثلها ، ويعاود النظر فيها ، ويستكمل الحظ منها ، حتى بلغ من مختار الرواية ومصطفى الكلام ما لا غاية بعده ؛ ثم قنع من فروع الثقافة الأخرى بنتف من المسائل الأولية ، ينقلها عن السماع ويأخذها عن الصحف إذا ظن أنها تدخل بوجه من الوجوه فيما يعنيه من ابتكار الأسمار وصوغ القريض ؛ حتى لغته الفرنسية ظلت بكماء فلم يتقنها ولم يستفد منها لا بالقراءة ولا بالترجمة ؛ وثقافة الشاعر المدنى المجدد ثقافة محيطة شاملة ، تشارك فى ضروب المعرفة مشاركة بصيرة ، وتتابع تقدم الفكر متابعة حرة

* * *

أما صياغة حافظ فهى موهبته الأولى ومزيته الظاهرة ، وهو فى ذلك ثانى الخمسة (١) الذين تيقظت على دعوتهم نهضة الشعر ، وتجددت على صنعتهم بلاغة القصيد . ولعله انفرد عن هؤلاء جميعاً بالصدق فى تعبيره عن هموم قلبه ، وتفسيره لأمانىّ شعبه ، وتصويره لمساوئ عصره

احمد حسن الزيات

(١) البارودى وحافظ وصبرى وشوقى ومطران

فى رأس البر

للأستاذ أحمد أمين

يعجبنى فى رأس البر بساطة العيش والقرب من الديمقراطية . يعيش الناس — كما كان يعيش آباؤهم الأولون — فى أكواخ من الحصر ، لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم ، وغنيهم وفقيرهم ؛ ويلبسون لباساً ساذجاً قريب الشبه بما كان يلبس آباؤهم ، ويسبحون فى البحر عراة ، ويمشون على البر حفاة ؛ ملوا المدنيـة وزخارفها ، والحضارة وبهرجها ، وهربوا من المدن وضوضائها ، والأرستقراطية وأوضاعها وتقاليدها وتعقيداتها ، وارتموا فى أحضان الطبيعة فأفسحت لهم صدرها ، ينزلون الى البحر فينفضون عنهم هموم الحيـاة ، وينبطحون على الرمل ويذكرون قوله تعالى : « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى »

ليس فيها قصور شامخة بجانب أكواخ وضيعة ، وليس فيها ثريات كهربائية بجانب أضواء زيتية أو غازية ، ولا ملابس أنيقة بجانب أثواب مهلهلة ؛ يصعب عليك التمييز فيها بين الغنى والفقير ، والعالم والجاهل ، إلا فى الآنسات والسيدات فهن يأبين إلا الظهور ، والتمسك بالفروق ، وإلا فى أمثالهن ممن حليتهم لباسهم ، وقيمتهم مظهرهم

خلف فيها الناس وراءهم المخترعات الحديثة بجلبتها ورذائلها ؛ فلا سيارات تصم الآذان بأبواقها ، وتأنف الأنوف من روائحها ، وتربك السائرين لسرعتها وكثرتها واضطراب حركاتها ؛ ولا تليفون يرن فى الهجير وفى منتصف الليل فيوقظك من نومك الهادئ ، ويحملك رجاء تنوء بحمله ، أو يصلك بثقيل ينغص عليك الحياة بحديثه ؛ ولا راديو يسمعك اللطيف والسخيف ، ويأبى عليك النوم أحوج ما تكون إليه ، وأشد ما تكون رغبة فيه ، لأن جيرانك يأبون إلا أن ينتفعوا به كاملاً من بدء عين — شمال ، إلى سلام الملك !

***

حياة حرة طليقة ، وجو مفتوح ، وهواء جديد دائماً ، لم تفسده الحضارة بدخانها وغازاتها ، ولم تحبسه الأبنية الشامخة ، ولم تحجزه الحيطان الأربعة ، تتجدد النفس بتجدده ، وتمتلئ نشاطاً من نشاطه ، يغذى كل خلية غذاء حلواً طيباً ، ويخلع على الجسم لوناً نجاشياً ظريفاً ، وينعش العواطف والروح ، فهى قوية حادة ، شديدة التنبه ، شديدة الاحساس ؛ حتى عاطفة الدين ، فهى أقوى ما تكون ، وأطهر ما تكون ، وأصفى ما تكون ، حينما تتجلى الطبيعة فى ثوبها الفطرى الجميل ، فى السماء والماء ، والمزارع والحقول ، فليس الألحاد والزندقة والتعصب الذميم وضيق النظر إلا وليـد الحضارة المعقدة ، والجو الخانق ، والفكر الراكد ، ودوران الفكر حول نفسه لا حول الطبيعة

فى جو المدن لا يشعر الانسان بالسماء إلا عنـد المطر ، ولا بجمال الشمس ولا جمال القمر ، ولا يحس الطبيعة إلا إذا ساءت من شدة الحر أو شدة البرد ! كل ما حوله من جمال جمال صناعى ؛ قد استغنى بجمال طاقات الزهور عن الزهور فى منابتها ، واستغنى بثريا الكهرباء عن ثريا السماء ، وبالحسن المجلوب عن جمال الفطرة وجمال الطبيعة وجمال الخلقة . وهيهات أن يتساوى منتحل وغير منتحل ، فليس التكحل فى العينين كالكحل !

إنما يشعر الانسان بجمال الطبيعة يوم يخرج من المدينة إلى الريف ، ويفر من الحضر إلى البدو ، فينكشف له الخلق بجماله القشيب ، وتأخذ بلبه السماء فى لا نهائيتها ، والبحار فى أبديتها ، ويشعر شعوراً قوياً بأنه ذرة من ذرات العالم ، وجزء صغير من أجزائه ، ضعيف بنفسه ، قوى بكله ، وأنه لاشىء يوم ينفصل عنه ، وأنه نغمة من نغماته يوم يتصل به

***

لوددت أنى خلعت نفسى فى المدينة يوم فارقتها ، فقد سئمت نفسى وسئمتنى ، ومللتها وملتنى ، وتمنيت أن تكون النفس كالثوب تخلعه حيناً ، وتلبسه حيناً ، ويبلى فتجدده ، وتكرهه فتغيره — إذن لاستبدلت بنفسى — ولو إلى حين — نفساً مرحة تستغرق فى الضحك من الشىء التافه ومن لا شىء ، ولا تبكى على ما فات ، ولا تحمل هماً لما هو آت

بل لتمنيت أن أكون كدودة القز تكون دودة حيناً ، ثم تكون فراشة حيناً ، أرشف من هذه الزهرة رشفة ، ومن هذه رشفة ، وأنشر جناحي في الشمس ، أعيش في جمال وأغيب في جمال ، كما تغيب الشمس الجميلة في الشفق الجميل ، أو كما تفنى النغمة الحلوة في رنات الآلات ، أو كما تنداح الابتسامة العذبة في الوجه الصبوح ، أو كما تندمج الموجة العظيمة في البحر العظيم !

ولكن أنى لى هذا ؟ ولو كان لشكوت وبكيت ، فقد خلقت كما خلق المتنبي

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبى
لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

***

وخرجت مبكراً والناس نيام ، أمشي على الشاطئ ، وأرقب الشمس في طلوعها ؛ والشمس على الساحل أجمل من الشمس على غيره ، فليس لها تلك القوة العاتية ، ولا الحرارة القاسية ، ولا الأضواء المشية ؛ فيها شيء من الوداعة واللطف والحنان !

ها هي ذي قد طلعت ، فأخذت الحياة تدب في النفوس ، تلقى أشعتها على البحر فينعقد منه سحاب فمطر فأنهار ، فجميع ما لذلك من أعمال باهرة ، وقوى ساحرة ، وأفعال عجيبة ! أنظرُ يميناً فأرى النيل ، وأنظر يساراً فأرى البحر ، وقد عاد النيل إلى البحر بعد أن أتم دورته ، وأدى مهمته ؛ قد خرج هذا العذب الفرات ، من هذا الملح الأجاج ، كما يخرج اللبن من بين الفرث والدم ! قد سلسلوا النيل فعدا عليه البحر فاغتصب مجراه ، وأملح ماءه ، ثم فكوا قيوده ، فاسترد حقوقه ، وأراد أن ينتقم من أبيه ، فحاول أن يحتل شاطئه ، ويحلى ماءه ، ولكن يعكر صفاءه ، ثم ندم على العقوق فتاب وأناب وإذا هما مؤتلفان ، بينهما برزخ لا يبغيان

ثم تسطع الشمس ، ووددت أن تكون مذكرة في اللغة العربية ، كما هي مذكرة فيما أعرف من اللغة الأوربية ، لأنها تتزوج الأرض فتولدها ما شئت من أشكال وألوان وذكور وإناث ، وكأن أشعة الشمس خمر معتقة تشربها الأرض فتنتشي وتبتهج ، وتمتلئ قوة ونشاطاً وحركة

وتقع أشعتها على الطير فيسرح ويمرح ويتغنى ، وتحل في قلب الانسان فيهدأ روعه ، ويذهب فزعه ، ويطمئن إلى حياته ، وتتحرك ارادته ، وتنتعش آماله

دعنى أتمر ، فالعراء على الساحل مباح ، فأملأ جسمي بأشعتها ، وأملأ شعوري ودمى بقوتها ، وأملأ نفسي بعظمتها وسحرها .

ومشيت إلى قلعة في رأس البر كنت آنس بها قديماً ، وكان في كل حجر من أحجارها صفحة من العزة القومية ، والحمية الوطنية ؛ أقامتها الأمة يوم كانت تشعر بنفسها ، وتدافع بنفسها عن كيانها ، وتحس بتبعاتها ، وتدبر شؤونها ، وتدير أمورها ، كما يتراءى لها — فرأيتها وقد عدا عليها الزمان ، وعلاها البلى ونقض أحجارها ، وليس من يعتز بها فيقيم أنقاضها ، ورأيت بها « مدفعاً » قد هزأ به الرمل فغطاه ، وسخر به الصدأ فعلاه ، دفن كما يدفن عزيز أرداه الزمان بسهامه ، وذل كما يذل السيد الكريم توالى عليه الدهر بأحداثه ! ورأيتهم أقاموا في وسطها صهريجاً يخزن الماء لرأس البر ؛ فقلت : سبحانك ربى ، جعلت من مستودع النار ماء ، كما جعلت من الشجر الأخضر ناراً ! لقد كان مكانك رمز القوة فأصبح رمز الرقة ، وكان بك جن يقذفون بالنار فبدلت بهم ملائكة يوزعون الرحمة ، وكان بك دم يغلى ، فأحاله الزمان القاهر زلالا باردا ، وما أدرى ماذا جاش بنفسي فدمعت عيني

وقالوا قد جُننتَ فقلتُ كلا — وربى ما جننتُ وما انتشيت
ولكنى ظُلمتُ فكدت أبكى — من الظُّلم المبيّن أو بكيتُ
فان الماء ماء أبي وجدى — وبئرى ذو حفرت وذو طويت

ثم صحوت فقلت : أتندب كل طلل مررت به ، وتبكى كل شيء رأيته ، وتحزن في معاهد الفرح ، وتنقبض في مغاني المرح ؟ من أجل هذا تمنيت — قبلُ — أن أخلع نفسي ، ووالله لو أمكنتني الفرصة ثانية ما ترددت ، ولسمحت وما حرصت ، فقد برمت بها وعجزت عن حملها

هيا إلى البحر ! فهناك الفرح والمرح ، وهناك يضحك الناس له ويضحك لهم ، ويداعبون أمواجه وتداعبهم ، وأحياناً ينسون جلاله فيصفعهم ! فيه الحياة ، وفيه القوة ، وفيه العظمة ، وفيه أكبر مظهر لطاحون العالم ، تطحن دائماً ، وتطحن ناعماً !

رأس البر

أحمد أمين

قضايا التاريخ الكبرى

من قضايا السحرة

صفحة من الجرائم المروعة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

يعتبر عصر لويس الرابع عشر أعظم عصور التاريخ الفرنسى ، لامن وجهة السلطان الباذخ فقط ، ولكن من الوجهة الاجتماعية والفكرية أيضاً ؛ فكما أنه عصر الفتوحات العظيمة ، فهو أيضاً عصر تقدم فكرى واجتماعى ساطع ؛ ولم تبد الملوكية الفرنسية من قبل قط بمثل مابدت به فى عصر لويس الرابع عشر من العظمة والبهاء ، ولم يزدهر المجتمع الفرنسى مثلما ازدهر فى هذا العصر ؛ وفيه تتفتح العبقرية الفكرية إلى الذروة ، ويحتشد النبوغ الفكرى أيما احتشاد ، هو « القرن الأعظم » كما ينعت فى التاريخ الفرنسى ، وهو عصر « الملك الأعظم » ؛ وهو عصر كورنى وراسين وراسان ولافونتين وجمهرة كبيرة أخرى ممن يزدان بهم التاريخ الفرنسى

بيد أن هذا البهاء الساطع الذى يشع به « القرن الأعظم » تغشاه الظلمات فى كثير من النواحى ؛ ففيه يتكشف ذلك المجتمع الباهر عن ثغرات خطيرة من الانحلال الخلقى والاجتماعى ؛ وفيه تزدهر الجريمة ، وتنحط النفس البشرية إلى ضروب شائنة من الفساد والاثم تخلق بأشنع العصور

فى سنة ١٦٧٦ كشفت مأساة السموم الشهيرة (١) التى أخذت فيها المركيزه دى برانفلييه بطائفة من الجرائم المروعة عن طرف من تلك الآثام الخفية التى تجثم وراء مجتمع زاهر ؛ وكان ذلك الحدث المدهش مفاجأة مروعة لمجتمع ذلك العصر ؛ فقد ظهر أن السم — ذلك السلاح الخفى الغادر — يحصد علية القوم حصداً ، وأن كثيراً من الوفيات الفجائية المريبة التى وقعت فى تلك الفترة إنما هى جرائم قتل شائنة ترتكب فى سبيل

الانتقام والمال والهوى

بيد أن جرائم المركيزه دى برانفلييه كانت جرائم فردية ، وكانت محدودة المدى ، ولم تكن شيئاً يذكر إلى جانب ذلك الثبت الحافل من جرائم هائلة مثيرة معاً تبث الروع الخفى الصامت إلى المجتمع الباريزى وتصمه بحمأة العار والاثم ، ويدمغ شينها المثير أرفع الرؤوس والمقامات فى ذلك المجتمع الأنيق الباهر

كانت جرائم « السحرة » ، وذيوع الخرافات السحرية بين علية القوم ، ومزاولة هذه الرسوم الوثنية الشائنة ، والتماسها وسيلة لتحقيق أحط الشهوات البشرية ، من ظواهر ذلك الانحلال الخفى الشامل الذى يغشى عظمة « العصر الأعظم »

كان السحر من الأمور التى طبعت أذهان العصور الوسطى بطابعها القوى ؛ وكانت مزاولة السحر جريمة يعاقب عليها القانون فى تلك العصور بأشد العقوبات ؛ وكان يعتبر من السحر كل مالا تسيغه عقلية هذه العصور من الأمور المدهشة حتى ولو كانت مما يدخل فى حيز الاكتشافات العلمية كمزاولة السيميا أو البحث عما يسمونه حجر الفلاسفة ، والتجارب الكيميائية المدهشة ؛ وكان السحر دائماً وسيلة الاجرام ، ترتكب باسمه وفى ظله أشنع الجرائم الدموية والأخلاقية ؛ وكان هذا النوع من السحر الملوث بحمأة الجريمة ، والذى تخضب رسومه الفظيعة فى معظم الأحوال بالدماء البشرية ، يسمى « بالسحر الأسود » أو السحر الذى يقصد به وجه « الشيطان »

ولم تكن عقلية القرن السابع عشر بعيدة عن هذه الأوهام الشائنة ، بل كانت تتأثر بها أيما تأثر ؛ وكان المجتمع الرفيع الذى يحفزه حب المال أو لوعة الهوى أو ظمأ الانتقام أو غيرها من الشهوات البشرية أو المثالب الخلقية يجد فى السحر ملاذه ويعتقد أن السحر مازال وسيلة لتحقيق هذه الأطماع والأهواء

فى ظل هذا المعترك الذى تضطرم فيه الشهوات الوضيعة ، ويملك الايمان بالسحر عقول الخاصة فضلاً عن الكافة وتسرى إلى المجتمع أسباب الانحلال الخلقى والاجتماعى ، كان « السحرة » ومن اليهم من دعاة السيميا والكيمياء يبثون فى المجتمع أباطيلهم ، ويزاولون تلك الرسوم المروعة المثيرة التى تعرف « بالسحر الأسود » ويسلحون الأيدى الغادرة بالسموم المرهقة ، وينظمون أشنع

(١) تناولنا هذه المأساة المروعة تفصيلا فى كتابنا « ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى » ص ١٥٨ — ٢١٢

الجرائم الدموية والخلقية ، ويستظلون للتمويه على الكافة بظل الخفاء والمقدرة على تنبؤ الغيب وتسخير القدر ، وتوجيه الحظوظ

وقد بلغ الشغف بالخفاء والتماس السحر ذروته فى ذلك العصر ؛ وكان يتمخض بين آن وآخر عن طائفة من الجرائم الفظيعة التى يكتنفها خفاء السحر وروعته

وكانت جرائم السحرة الشهيرة التى اكتشفت فجأة فى عصر « الملك الأعظم » من أروع هذه المفاجآت التى يرتجف المجتمع لهولها وشناعتها

***

فى يوم من أواخر سنة ١٦٧٨ ، اجتمع فى باريس على مائدة سيدة تدعى « لافيجوريه » هى زوجة خياط للسيدات ، محام متواضع هو الأستاذ پيران ، وامرأة « عرافة » مشهورة فى هذا الوقت تدعى مارى بوسى ؛ فى أثناء العشاء بدرت من العرافة تلميحات خطيرة حول جرائم ترتكب بالسم ، ويشترك فى ارتكابها رجال ونساء من علية القوم ؛ فانزعج الأستاذ پيران ، وأفضى بما سمعه إلى مدير البوليس « لاريني »

وكانت ذكريات جرائم المركيزه دى برانقلييه ما تزال حية رنانة ، فأدرك « لاريني » أنه ربما كان أمام ثبت آخر من الجرائم المماثلة ، فأمر بالقبض على مدام ڤيجوريه ، ومارى بوسى وابنتها مانون وولديها ؛ وذلك فى ٤ يناير سنة ١٦٧٩ ، وأفضت التحقيقات الأولى التى قام بها لاريني نفسه إلى أن قبض فى ١٢ مارس على امرأة تدعى «لاڤوازان» أو مدام ڤوازان ، وهى عرافة شهيرة فى ذلك العصر تزاول السحر وأموراً خفية أخرى ، وعلى ابنتها مرجريت ، ثم على رجل يدعى « لى ساج » وهو شريك لاڤوزان وعشيقها ، ثم على عشرات آخرين ممن ورد اسمهم فى التحقيق ونسب اليهم قسط من الأعمال والجرائم المروعة التى كشفت عنها اعترافات المتهمين

كان لاريني مديراً للبوليس ، يقف بحكم وظيفته على أخطر الأسرار وأفظع الجرائم ، ولكنه لم يلبث أن رأى نفسه أمام معترك هائل من الجرائم التى ترجف لهولها وروعتها أقسى القلوب وأصلبها ؛ جرائم تمتد إلى النفس والعرض والمال بأشنع الآثام ، وتتطاول إلى الملك وحياته ذاتها ، ويشترك فى تدبيرها وارتكابها نفر من العظماء نساء ورجالاً يزاولون « السحر الأسود » ويشتركون طوعاً فى اجراءاته المروعة المشينة ، ويغمسون أيديهم فى الدم البرئ تقرباً إلى الشيطان ، والتماساً لتحقيق أسفل الشهوات والغايات

وكانت لاڤوازان هى المحور الأكبر لذلك الثبت المروع من الجرائم التى سودت صحف « العصر الأعظم » وهى امرأة تدعى فى الأصل كاترين ديزى ، وزوجها رجل يدعى مونڤوازان ، أو ڤوازان ، ومن ثم كان اسمها . وقد بدأ الرجل حياته تاجراً فى الحلى ، ثم زاول أنواعاً أخرى من التجارة ، ولكنه لم يفلح ولازمه النحس ، فاعتزمت زوجته عندئذ أن تزاول مهنة التنجيم والعرافة . وكانت لاڤوزان فى الواقع ذات مقدرة خاصة فى تفهم نفسية بعض الناس ، وكانت قد درست شيئاً من الفلك ومايتماق بالسحر من المسائل والرسوم التى كانت ذائعة فى ذلك العصر ؛ فامتهنت العرافة والسحر ، واستقرت فى منزل تحيط به حديقة فى ڤلنيف من ضواحى باريس . وأقبل عليها القوم من كل صوب يستوحون علمها ونصحها ، وكانت تزاول كل مايدخل فى باب الخفاء من قراءة الكف وصنع التمائم والتعاويذ ، والتنبؤ بالمستقبل ، بيد أنها كانت تزاول أعمالاً أخطر ، فقد كانت تبيع السموم لزوجات يردن التخلص من أزواجهن ، أو أقارب يترقبون وفاة المورث ، وكانت تصف الأدوية لمختلف الأمراض ، وتزاول التوليد وبالأخص الاجهاض ؛ وكان بين قصادها سادة من الأكابر وسيدات من أرقى طبقات المجتمع

وكانت لاڤوازان ، كما يصفها المعاصرون امرأة قصيرة القد ؛ مليئة الجسم ، وافرة الحسن ، لها عينان ساطعتان ثاقبتان ، وكانت بما ينهمر عليها من المال من كل صوب تعيش عيشة ترف ومتاع ، تصطفى العشاق حسبما تهوى تحت سمع زوجها المسكين وبصره ، وتقيم الحفلات الصاخبة ، وكانت تعشق الشراب وتفرط فيه ، فلا ترى دائماً إلا ثملة ، تضرب زوجها أوعشاقها وهم عديدون ؛ وكانت تحيا هذه الحياة الحيوانية المحضة فوق أكداس من الآثم ترتكبها كل يوم ، لايزعجها شبح أولئك الذين ترسلهم بسمومها إلى الأبدية ، ولاتلك الضحايا البشرية العديدة التى كانت ترهقها مع شركائها كلما أجرت رسوم القداس الأسود كما سنرى

وكان شريكها وساعدها الأيمن فى تلك الحرفة الأثيمة رجل يدعى «ليساج» ، وكان أحب عشاقها اليها وأشدهم نفوذاً لديها ، وكان ليساج يزاول أعمال السيميا ليكتشف ما يسمونه « حجر الفلاسفة» أو المادة التى يمكن أن تعاون فى تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب ، وتمده لافوازان كما تمد غيره من السيميائيين والمشعوذين بالأموال الوفيرة لاجراء التجارب المطلوبة . وكان هذا «الساحر» الخطر من أهل الجنوب واسمه الحقيق آدم كيربه ؛ وكان يشتغل بتجارة الصوف ، ولكن غلبه شغف السحر والخفاء فاتصل بلافوازان ووثق الحب بينهما ذلك التحالف الأثيم ، ووعد لافوازان بالزواج متى غدت أرملا . وفى سنة ١٦٦٧ قبض عليه بتهمة « الاتصال بالشيطان » وقضى عليه بالأشغال الشاقة فى الأسطول ، ولكن لافوازان سعت لانقاذه بنفوذها واستطاعت أن تستصدر العفو عنه فعاد إلى باريس سنة ١٦٧٢ وتسمى بليساج ، واستأنف أعماله الأثيمة مع عشيقته

وكان ليساج وغداً سافلاً لا يحجم عن ارتكاب أية جريمة ، وكان له أكبر نفوذ على لافوازان وزميلاتها ، فكان يقتنص منهن الأموال الوفيرة بخبثه ودهائه ؛ وكان يكتب التعاويذ للراغبين ويعقد صلاتهم بالشيطان بتمائم وأدعية مريبة ، وأحياناً يتزيا بزى القسس ويقيم الصلوات والأقدسة ؛ وكان منظره غريباً يضع على رأسه شعراً أحمر ، ويرتدى ثوباً أشهب ومعطفاً غريباً ، وكان القبض عليه للمرة الثانية عقب القبض على لافوازان فى ١٧ مارس سنة ١٦٧٩

* * *

كان اكتشافاً مروعاً ذلك الذى وقع به لارينى مدير البوليس من أعمال هذه الطغمة . ولم يكن أمر السحرة مجهولاً ، وكان الهمس يسرى حول آثامهم وجرائمهم فى أرفع الأنحاء ؛ ولكن لارينى لم يكن يتوقع قط أن يكشف التحقيق الذى أجراه وأشرف عليه مدى أشهر عن تلك الشبكة السوداء الهائلة التى تغمر العاصمة الفرنسية والتى تجذب شراكها الخطرة أعظم الرؤوس وأعظم المقامات . وقد أثبت لارينى فى ملف التحقيق الذى أجراه أقوالا ومعلومات مدهشة عن أعمال المتهمين وحياتهم الغريبة ؛ ومما أثبته من أقوال لافوازان ، إن أفضل ما يعمل هو أن يقبض على كل من يزاول قراءة الكف ، فان هذه الحرفة تكشف عن أمور مدهشة حينما يمنى المحب بخيبة الأمل ، وإن التسميم جرم ذائع ، وإنه يدفع عن « العملية » الواحدة أحياناً عشرة آلاف جنيه (نحو خمسين ألف فرنك من العملة الحديثة) ؛ وأيد ليساج هذه الأقوال ، وزاد عليها أن كل أولئك الذين يزعمون أنهم يبحثون عن الكنوز أو حجر الفلاسفة أو غيرها إنما يزاولون أعمالا خفية أخرى ، وأولئك الذين يزاولون السحر إنما يتعاقدون على تسميم زوج أو زوجة أو أب وربما على تسميم طفل فى المهد

بيد أن أروع ما سطره التحقيق أقوال المتهمين عن مزاولة « السحر الأسود » وإجراءاته الدموية المثيرة . وكانت هذه الاجراءات تقترن عادة بأزهاق طفل صغير يسرق أو يؤخذ من بين اللقطاء الذين تقذف بهم الأمومة الأثيمة . وكان يؤتى لهذه الغاية ببغى تمدد عارية بين هالة من الشموع السوداء ؛ ثم يأتى الساحر فى ثياب قس ، وبعد أن يذبح الطفل ، يلقى بعض التمائم والدعوات الشيطانية ؛ وكان الساحرات يبحثن دائماً عن الأمهات الآثمات أو البغايا الحاملات فيجرين توليدهن ويأخذن المواليد برسم القربان ؛ ويلقى بهذه الجثث الصغيرة فى بعض الغابات أو تحرق فى منزل الساحرة . وكانت لافوازان أنشط الساحرات فى إجراء هذه الرسوم الهائلة ؛ وكان يعاونها فى إجرائها غير ليساج قس وغد يدعى الأب جيبورج ؛ فيقوم بقراءة « القداس الأسود » أو قداس الشيطان على أجسام النسوة اللاتى يرغبن فى هذا الاجراء وكن يتمددن عاريات فوق مائدة تؤدى وظيفة الهيكل ، ويوضع الاناء المقدس على البطن العارى ، ويذبح وقت القربان طفل يلقى دمه فى الاناء ، وقد اعترفت لافوازان أنها أحرقت فى فرن منزلها أو أخفت فى حديقتها نحو ألفين وخمسمائة جثة من هذه الضحايا الصغيرة البريئة !

هذا طرف مما دونه لارينى فى تحقيقه من أقوال المتهمين أنفسهم . ويعلق لارينى على ذلك بقوله ، إنه يستحيل أن يتصور الانسان أن تكون هذه الجرائم حقيقية أو ممكنة إذا ما تأملناها . بيد أنها اعترافات أولئك الذين ارتكبوها أنفسهم ؛ وتفاصيل الاعتراف لا تدع مجالاً للريب

(للبحث بقية)

(النقل ممنوع)

محمد عبد الله عنان

جندى الأدب المجهول

للأستاذ عبد الوهاب النجار

أقول جندى فقط لأنه لم يكن ضابطا كريماً ولا ضابطا عظيما ولا ضابطاً صغيراً ، بل كان جنديا . وكفى

والذى أتحدث إلى حضرات الأدباء عنه ، أعتقد أن أحداً منهم لا يعرف عنه شيئاً . وهو المرحوم الشيخ المعمَّر محمد أفندى التميمى بن المرحوم الشيخ أحمد التميمى مفتى الديار المصرية

وكان والده المرحوم الشيخ أحمد التميمى من أهل مدينة الخليل بفلسطين ومن علمائها ومن ذرية تميم الدارى . وقد أتى به إلى الديار المصرية ساكن الجنان ابراهيم باشا جد مولانا الملك فؤاد ، وعين مفتياً للديار المصرية . وظل بتلك الوظيفة إلى أن عزل بالمرحوم الشيخ محمد العباسى الحفنى المهدى — (وقد تولى الشيخ المهدى إفتاء الديار المصرية وهو طالب بالأزهر)

مات المرحوم الشيخ أحمد التميمى عن ولديه عبد الرحمن أفندى ومحمد أفندى ؛ فأما عبد الرحمن فأسرع فى تركة والده إسراعاً شديداً ، فأنشأ له ذهبية فى النيل وجعل مقابض مداريها من الذهب ، والجزء الذى يغرز فى الطين من الفضة ، وجعل نعال خيله من الفضة ! وكان أخوه محمد لا يعصى له أمراً ، فكلما أراد بيع عمارة أو بيت أمضى محمد مع أخيه عبد الرحمن واعترف بقبض ثمن حصته ، وهو فى الواقع لا يناله من ذلك سوى النزر اليسير

فلما فرغت الراحة عمد محمد افندى إلى اسطنبول ليجد واسطة من أصدقاء والده ليمين فى وظيفة . ولست أعلم إن كان أخوه عبد الرحمن افندى سافر إلى اسطنبول أو لا

وآخر عهدى بعبد الرحمن افندى أنه كان مأمور مركز ؛ وكانت له ورشة نجارة بطنطا ، لأنه أتقن فن النجارة أيام أن كان مهيمناً على عمارات والده

وأما محمد افندى وهو أديبنا المجهول ، فلما عاد بالوصية عين موظفاً بتفتيش السنطة والهيايتم التابع لدائرة ثالثة زوجات المرحوم إسماعيل باشا

كان المرحوم محمد افندى التميمى مغرماً بالتدخين فى النرجيلة (الشيشة) ، فلما كان فى اسطنبول خرج إلى متنزه اسمه (الكاغدخانه) ومعه النرجيلة يدخن فيها ، وجاءت السيدات والأوانس من كل صوب وحدب إلى ذلك المكان النزه . ونظر فوجد بقربه سيدة جميلة رشيقة قد جلست ومعها سيدة أخرى . وحانت من السيدة التركية التفاتة فرأت ذلك الرجل الذى يلبس جبة وقفطاناً وعمة خليلية منهمكاً فى كتابة شىء ، فحزرت أنه يكتب عنها ، فأرسلت السيدة الأخرى إليه وكانت تحذق العربية ، فسألته عما يكتب ، فناولها ما كتبه فقرأت :

ظل قــلبى فى غزال   من بنـات الترك يُفكرْ
رمت منها الوصل قالت   سن صقللى هيدا سكتر

أى أنت ملتح ، هلم فاذهب ! فأسرعت إلى السيدة التركية وأرتها ما كتبه وترجمت لها بالتركية ما فى الكتابة من ألفاظ عربية فسرها ما سمعت ، وحلفت بالمحرجات من الايمان إلا ما حل عندها ضيفاً الليلة

ولما كان بتفتيش السنطة ومركزه القرشية عين ناظراً لورشة التصليحات التى أنشأها المرحوم إسماعيل باشا لأصلاح الآلات الميكانيكية ، وكان بناؤها سنة بضع وسبعين ومائتين وألف هجرية ؛ فمر التميمى بالحدادين يحمون الحديد إلى درجة الاحمرار ثم يفطحونه بمطارقهم . فقال مواليا أوله :

لان الحـديد للمعـلم والحبيب ما لانــ
وقد ند عن ذاكرتى باقيه

وله لطيفة وهو بالورشة ، فان المرحوم خلف الله باشا عين مفتشاً لتفتيش السنطة والهيايتم ؛ فلما استقر به المقام طلب إحصاء بالعمال الذين بالورشة ومرتب كل واحد منهم أو يوميته ، فلما نظر فى ذلك الاحصاء وجد (خوجة لتعليم العمال القراءة والكتابة وإرشادهم فى أمر دينهم ، ومرتبه جنيه فى الشهر) فقال : هذا الخوجة لا لزوم له . فقال التميمى : إنى فكرت فيما فكر فيه سعادة الباشا وأردت رفته ولكنى وجدت الرجل يصلى بالناس الصلوات الخمس بالمسجد مجاناً ، ويخطب الناس يوم الجمعة والأعياد بلا مقابل ، فقلت أتركه الآن حتى يأتى (ابن الحلال) الذى يكون قطعُ رزق هذا الرجل على يده . والحمد لله سعادتكم ، شرفتم ويمكنكم

أن تعملوا ما لم أعمله . فقال خلف الله باشا : والله لا أكون ابن الـ . . الذى يقطع رزق هذا الرجل على يده . وبقى الرجل فى هذه الوظيفة عشرات من السنين إلى أن توفى

وكان له صديق مُثر من المال ، علم أن التميمى اعتزم الزواج ، وما بينهما من المودة يقضى عليه بتقديم المساعدة و (النقوط) ، فأحدث غضباً لا أصل له ، وفطن التميمى فكتب اليه :

إن قوماً أبغضونا خيفة من قول هاتِ
قل لهم فى يوم عرسى نقطـــونا بالسكاتِ

والأمثال لا تغير

ولما نقل المرحوم ابراهيم أدهم باشا من تفتيش السنطة والهياتم وعين مديراً للغربية ، طلب أحد العمد ، تخشى العمدة أن يعتريه الباشا المدير بسوء ، وجاء إلى التميمى ليكتب إلى الباشا خطاب عناية به فكتب :

قد ظن هذا رجائى عندكم فأتى مستشفعاً بى فعلَ الطامع الراجى
قد ظن عكساً وقصدى من سعادتكم أن تضربوه جزاءً ألفَ كرباج

وأخذ الرجل الكتاب بعد أن ألصق جوانبه بالبرشام وهو يكاد يطير من الفرح ، وقدم على الباشا وناوله إياه ، فأغرق الباشا فى الضحك وعفا عنه

وله رجز فى الفلاح حين واتاه القطن فى نحو سنة ١٢٨٠ عقب حرب أمريكا ، واقتنى الجوارى البيض والعبيد ، وتأنق فى المأكل والملبس ، أحفظ منه :

من بعد خَضْر اصار يَقْتنى كلفدان وطعامه قلدر وخادمه أمان
ولكم مصاغ علقه بعضهم من فوق زوجته الكثيبة ستهم
تلقاه يرمى اللفظ كالجالوس ويقول عندى نسخة الجاموس

***

وفى أيام اختفاء عبد الله افندى النديم بالقرشية عند المرحوم أحمد باشا المنشلوى ، وكان يسمى نفسه السيد على الادريسى اليمنى ، كان النديم يجالسه كل ليلة ولا يدرى حقيقته . وكان المجلس عند بهما إلى ما بعد نصف الليل . فى ليلة سأل المنشاوى باشا جليسيه عن أرباب الجرائد ، فكان عبد الله النديم يسرع ويجيب ويسبق التميمى إلى الجواب ، فقال المنشاوى باشا وما تقولان فى صاحب الطائف ؟ فسكت النديم أو السيد على الادريسى اليمنى وتكلم التميمى ، وقد رابه شأن النديم ولم يقم من المجلس إلا وهو موقن بأن جليسه فى هذه السنوات هو عبد الله النديم

فلما رجع إلى بيته كتب اليه

يأيها الحبر الذى كالبحر يبعد ساحله
من كان مثلك فاضلاً تمت عليه فضائله

وأرسل البيتين مع الخادم ؛ فلما قرأهما النديم ارتاع وخشى على نفسه . فلما جن الليل وجاء محمد افندى التميمى على عادته لقيه بالعناق ، وكتم التميمى أمره إلى أن أعانه الذى قال إنه علم بالنديم بالجميزة ، وكان الواقع أن النديم أعلن نفسه لذلك المخبر بعد أن مضى على الحكم عشر سنوات شمسية وأحد عشر يوماً

وللتميمى قصائد لا أحفظها ولا أجد من يقفنى عليها الآن ؛ وهو أول من أبرز رواية بالعربيــة وسماها أم حكيم ، وقد مضى على إبرازها أكثر من خمسين سنة

وقولى إنه معمر سببه أن التميمى كان قد تولى عمارة مسجد وضريح سيدى فخر الدين ببلدة طوخ مَزْيد فى عهد المرحوم اسماعيل باشا ، وكانت العمارة ينفق عليها من دائرة ثالثــة أزواج الخديو اسماعيل ، وأحيلت الكتابة على والدى رحمه الله وكانا قريبين فى العمر . وكنت إذا سألت كلا منهما عن الأسن منهما اتهم كل منهما الآخر بأنه أسن منه ، وقد توفى والدى سنة ١٩١٩ عن نحو مائة سنة ، وعاش محمد افندى التميمى بعده من أربع إلى خمس سنوات ، واعتقادى أنه أربى على المائة

فهذا الرجل فى نظرى هو جندى الأدب المجهول

عبد الوهاب النجار

اعلان من الرسالة

(١) لا تنشر الرسالة إلا ما كتب لها خاصة
(٢) لا تنشر الرسالة المقالات المسلسلة إلا إذا أرسلت إليها السلسلة كاملة
(٣) لا تنشر الرسالة قطعة مترجمة ما لم يرسل أصلها معها
(٤) لا تنشر الرسالة مقالة إلا إذا عرفت كاتبها ، وللكاتب أن يرمز لاسمه بما يشاء

٦ - النهضة التركية الأخيرة

للدكتور عبد الوهاب عزام

المرأة :

ومما آخذه على الكماليين خطتهم فى تربية النساء ، فقد أخذوا بيد المرأة التركية ، ربة الدار الطاهرة ، وأم الأشبال الباسلة ، فقادوها إلى المراقص ، والملاهى ، ومجالس السمر أخذاً بسنن أوربا ؛ وسموا هذا تحريراً للمرأة وانصافاً لها واعظاماً ، واعترافاً بقدرها ، كأن المرأة لاتكون حرة إلا إذا هجرت الدار ، وعمرت المراقص ، وأهملت أطفالها لتجالس سمّارها ، وتركت سكينة الدار وسعادة الأسرة ، إلى ضوضاء الملاهى ونزاع المحافل ! لست آخذ على الكماليين أنهم تركوا المرأة تغشى المراقص اختياراً ، ولم يردوها إلى الدار قسراً ، بل آخذ عليهم أنهم هم دعوها إلى ذلك ، وحرضوها عليه ، وزينوه لها ، بل ألزموها به بعض الالزام حين نظروا شزراً إلى الموظفين الذين لا يأخذون زوجاتهم باتباع السنن الجديدة ، ويريدونهن على مسايرة النهضة النسوية ، ويروضونهن على أفانين المعيشة الأوربية

فعل الكماليون هذا تقليداً لأوربا وتقرباً اليها ، واستحياء من الاستمساك بآداب لايعرفها الغربيون ، والابقاء على سنن ينكرها السادة الاوربيون . ثم زادوا تقرباً حين أباحوا تزوج المسلمة من غير المسلم ، وقد عاشت المرأة التركية حقباً ترى واجبها أن تربى أشبالها للدفاع عن قومها ودينها ، وحماية تاريخ الاسلام والترك ، وترى نفسها أعز وأرفع من أن يلى أمرها غير مسلم ؛ وكانت هذه الكبرياء عصمة لها ولقومها فى المحن التى انتابتهم ، والفتن المحيطة بهم ، وفى هذا النزاع ، نزاع الحياة والموت الثائر بين الشرق والغرب . فذهبت هذه «النهضة» بكبريائها ، ومحت ما أورثها الاسلام والتاريخ من عزة وإباء

وأتم الكماليون اعظام المرأة وتحريرها بأن فتحوا دوراً للبغايا فسايروا بعض الأمم الأوربية ، وشاركوا مصر الاسلامية فى وصمة العار ، وسمة الخزى ، التى تحاول اليوم أن تمحوها عن جبينها . وقد بلغ من اعتدادهم بما فعلوا ، وافتخارهم بما اقترفوا ما تبين عنه القصة الآتية : حدثنى من لا أرتاب فى صدقه قال : كنت على ظهر سفينة من عابرات المحيط ، ذاهباً إلى المؤتمر البرلمانى فى البرازيل ، وكان على السفينة جماعة من ممثلى الدول يؤمون المؤتمر ، وكان فيهم مندوبو الحكومة التركية ، فجلسنا مرة نتحدث ، وذهب بنا الحديث مذاهب حتى قال مندوب تركى مفتخراً متبجحا : لقد أنفقنا كذا وكذا فى بناء دور فخمة رائعة للبغاء (وذكر مقدارا من المال عظيما جداً ، لا أذكره الآن)

قال محدثى : فلما قام صاحبنا نظر مندوبو الدول الأوربية بعضهم إلى بعض ساخرين متعجبين يقولون : ماذا يريد أن يقول هذا الرجل ؟

***

لا يحسبنى أحد مجادلاً فى سفور المرأة واحتجابها فيقولن فيم يجادل هذا الجاهل ؟ لقد سبقته المدنية مراحل كثيرة فى جدال الناس اليوم فى اللبس والعرى . لا يقولن أحد هذا فانى لست أنكر على المرأة أن تأخذ طريقها طليقة رشيدة ، تصرّف أمورها وتقوم بقسطها فى الأمور العامة والخاصة على قدر ما تمكنها أعمال الدار والقيام على الأسرة . ولست أنكر أن الاسلام منح المرأة من الحقوق مالم تظفر به نساء أمم فى أوربا حتى اليوم . لا أنكر هذا ولا أجادل فيه ، ولكنى أضن بالمرأة أن تنزل عن عرشها فى أسرتها لتتبذل فى الطرق والمسارح والمراقص ، وأشفق عليها أن يخدعها الرجال لحاجات فى أنفسهم فيزينوا لها كل ماتنزع إليه مآربهم ، ثم يكذبون فيذكرون الحرية والحق والاصلاح والكرامة ونحو هذا من الكلمات الكاذبة الخادعة ، الثائرة الرائجة فى هذا العصر . أيها الناس لا تخدعوا أنفسكم ولا تجحدوا أن لهو المدنية الحاضرة يدور معظمه حول جسم المرأة فى الطريق والمرقص والمسرح وشاطئ البحر . وحسب المرأة ذلة وهواناً أن تكون ألعوبة الرجال حيثما شاءوا وكيف شاءوا . وبعد فهذا أمر لا يعالج بكلمات ، ولا ينفد بيانه فى صفحات ، فحسبى أن أتناوله مجملاً موجزاً لا معدّداً مناهج النهضة التركية الأخيرة

***

ويقتضى المقام هنا كلمة موجز عن نساء مصر : تغيرت المرأة

المصرية في السنين الأخيرة تغيراً عظيما . وبعض هذا التغير خير لا مراء فيه ، فقد تعلمت وبَصرت بمناهج الحياة ، وهذا صلاح وخير ؛ ولكن ما يسمى النهضة النسائية في مصر تشوبه شيات من الضلال ، وألوان من أفن الرأي وخدعة الهوى ، ويلتبس الخير والشر في كثير من جوانبها : في مصر جماعة تتكلم عن نساء مصر كل حين ، وتدعى أنها تنطق بآلام المرأة المصرية وآمالها ، وهي على ذلك لا تمثل إلا جماعة من النساء هن أقرب إلى أوربا من مصر ، وأشبه بالأجنبيات منهن بالمصريات . وأما المرأة المصرية كما نراها وكما نود أن نراها فلا تمثلها هذه الجماعة إلا بزعمها ؛ هي جماعة كثيرة القول والعمل في الجوانب اليسيرة البرّاقة التي لا تكلفها إلا الكلام والاجتماع من حين إلى حين ، وأما جوانب الاصلاح العسيرة التي تقتضي كدّ الفكر واليد وهجر الراحة والرفاهية : جوانب الاصلاح الخلقي والديني التي تحول بين الناس وبين كثير من رغائب المدنية الأوربية ، فليس للجماعة غرام بها ، ولا صبر عليها . لا ريب أن للجماعة أعمالاً مشكورة في تربية الفقيرات والحدب عليهن ، ولكن أبرز أعمالها أن تجمع الشواب من بنات الأسر الراقية للغناء والرقص وامتاع النظارة بضروب من المناظر وهلم جرّا . يضربن بذلك للمرأة المصرية أسوأ الأمثال ، ويدعونها إلى شر الخطط ، ويحطمن في ساعات ما وطدته الأمة في أجيال

كثيراً ما سألت أصحابي : لماذا لا تدعو هذه الجماعة إلى طريقة خلقية رشيدة ، أو سنة دينية حميدة ؟ لماذا لا يطالبن — مثلاً — أن يكون للنساء الحق في غشيان المساجد أحياناً ليوعظن ويعلّمن ما منح الاسلام المرأة من حق ، وما فرض عليها من واجب ؟ وقد اطلعت في عدد الرسالة الأخير على كلمة للأستاذ أحمـد أمين « حول المسجد » أخفف عن نفسي بنقل شـذرة منها ، قال : « بل لِمَ لا يكون المسجد معهداً للمرأة كما يجب أن يكون معهداً للرجل . فيخصص مسجد كل حيّ وقتاً لنساء الحيّ تعلّم فيه المرأة واجباتها الدينية والاجتماعية ، وتُفقّه فيه في دينها ودنياها ، وترشد فيه إلى طرق إسـعاد البيت ، وتثار همتها إلى العطف والاحسان وتنظيمهما . فالمرأة الآن محرومة من غذائها الروحي والديني لأنها بعيدة من المسجد ، حرمت منه من غير حق ، وهو سلوتها في الأزمات ، وهو منهل عواطفها وغذاء روحها . لقد حرمت المرأة من المسجد فحرم أبناؤها وبناتها من العاطفة الدينية . لأن الأم — غالباً — هي مصدر هذا الايحاء ، وإذا انحرفت مرة فلم تجد المسجد يهديها ويعزّيها ، جمحت وغوت . فهي الآن بين بيت وملهى ولا مسجد بينهما يُذهب ملل البيت ويكسر من حدة الملاهي »

فليت شعري ما رأى سيداتنا في هذا الكلام ؟ أليس الاهتمام بالمساجد في حالنا الحاضرة أولى من الاهتمام بالمؤتمرات التي يحرصن عليها ويحاولن فيها أن يسبقن نساء أوربا ؟ أذكر أن وفداً من سيداتنا المصريات ذهب إلى مؤتمر نسائي كان في روميّة — فيما أذكر — فهل تدرى فيم تكلم الوفد ؟ تكلم في « حقوق الطفل غير الشرعي » ! !

وأنا أترك القارئ لنفسه هنا يبدى ما يشاء ويقول ما يريد في هذا الموضوع . وفي هذا العام ذهب وفد للمشاركة في مؤتمر نسائي اجتمع في اسطنبول ، فنادين باسم المرأة المصرية أنهن راضيات مغتبطات بما اختطه الكماليون للمرأة التركية ، وبكل ما فعله الكماليون . وتطوعت زعيمتهن فقالت للغازي مصطفى كمال باشا : إنك تسمّيت « أتاتورك » وأنا أسميك « أتاشرق »

وليس يهمني هنا أنها منحت الغازي لقباً لا معنى له في اللغة التركية ، فان معنى أتاتورك : التركي الأب ، فمعنى « أتاشرق » على هذا القياس الشرق الأب وهو كلام لا معنى له . ليس يهمني هذا الغلط اللغوي ولكني أقول إن الوفد النسائي ما كان يبين عن آراء المرأة المصرية ، ومعظم المصريين من نساء ورجال لا يرضون مذاهب الكماليين في المرأة ولا غيرها . ومعظم الشرقيين لا يرضون لأنفسهم مذاهب الكماليين ، بل معظم الترك لا يرضونها ، فان كانت الزعيمة أرادت أن تقول إن الغازي صار بعمله أباً للشرق كله فهي أبوّة لا يعترف بها الشرق ، وهي « أبوة غير شرعية » والكلام فيها كالكلام في الطفل غير الشرعي

لست ، يعلم الله ، أحاول بهذا توهين المساعي النسائية في مصر ، ولا تهوين أمرها على الناس ، ولا الزراية على أحد من المتصديات لها ، وما أريد لهن إلا الكرامة والرشد ، والنجح والظفر ، ولكن علينا أن ننصح ما استطعنا وأن نبين الرشد والغيّ

جهدنا، وأن ننادي بالرأي صريحاً في غير محاباة ولا مراءاة؛ فليس من الخير للأمة أن يدهن الناس في أمورها، وأن يسلموا للضلال زمامها، وللفوضى قيادها؛ وليس من البر بالنساء المصريات أن ندعهن سائرات على غير هدى، فلا نعاونهن بالنصيحة المخلصة، ونسددهن بالرأي الصريح، فنخذلهن ونقعد عن نصرتهن بالفعل وبالقول، والله يهيئ لنا من أمرنا رشدا

(له بقية) **عبد الوهاب عزام**

إلى الدكتور ابراهيم مدكور

التابو

للأستاذ محمد روحي فيصل

قرأت مغتبطاً دراسة الدكتور للخرافة، وقوة أثرها في الجماعة؛ وأشهد لقد أحسن العرض وأتقن البحث، ثم وفق إلى كثير من الأمثلة الواقعة الجميلة التي استقاها من أوثق المصادر، والتي تلقي ضوءاً على الموضوع؛ ولابد أن يكون القراء قد أعجبوا كما أعجبت بعمق ثقافته وسداد تفكيره

يقول الدكتور: « وللخرافة يد أخرى في الدفاع عن الملكية، فقد حاربت السرقة والسراق، وحمت مال الفرد والجماعة، وقضت على عامل كبير من عوامل الاضطراب. فالخرافة حلت محل القوانين والشرائع المختلفة في حماية الملكية الفردية والعامة لدى بعض الشعوب المتوحشة، وربما كان لها على نفوس معتنقيها سلطان لايعدله سلطان قوانيننا المنظمة »

وهذا صحيح! فلقد شهدت فيمن شهد الرواية السينمائية الرائعة « ضحية المعبد » التي تصور عادات القبائل المتوحشة في جزر البحار الجنوبية، وتبرز العقلية الأولية القاصرة في إطار وضيع مهين، وتتلخص في أن فتاة لابأس بجمالها نذرت نفسها للرب وكرست حياتها لخدمته، فغدت عذراء مقدسة لايتزوجها ولايخاطبها ولايمسها أحد من الناس. وشاء القدر العابث أن تعشق شاباً طويل القامة مفتول الذراعين، ويعشقها هو الآخر فيتغازلان ويجتمعان، ثم يهربان إلى جزيرة نائية خوفاً من عقاب « التابو »!! ذلك أن من يهاجم العذارى، أو يخرق حدودهن، وينتهك حرماتهن، جزاؤه الموت؛ أفلسن للإله وحده؟ فكيف يشركه في ذلك آدمي نجس؟... وراح رجال القبيلة يفتشون عن المجرم ويقتفون معالمه، وبعد لأي وجهد عثروا عليه فأوثقوه بالحبال ثم هووا به إلى قاع اليم فذهب ضحية المعبد....!!

والتابو Tabou وسم أو علامة يضعها المتوحش على باب داره مثلاً إن أراد حمايتها، وله بعد ذلك أن يهجرها ما شاء من السنين، فلن يجرؤ امرؤ على سرقتها أو دخولها. والتحريم الذي تخلعه هذه العلامة على الأشياء والأشخاص ليس كالتحريم الذي نعهده في شؤوننا الأخلاقية من تحبيب في الخير وتبغيض في الشر، وإنما هو تحريم خاص، ملفف بالرهبة والتقديس، ومفعم بالأسرار والمساتير

فالأمراء البولينزيون الذين يزعمون أن نسبهم الكريم يتصل بالأرباب يطلق عليهم « آريي تابو » أي الأمراء المقدسون؛ أما كلمة « نوا » فانها تفيد العموم والاشتراك. فالمرأة في بولينزيا توصف قبل أن تتزوج بنوا، أي أنها حرة طليقة تتزوج ممن تشاء، وإذا تزوجت أسدل عليها ستار صفيق من التابو فتحرم على الناس جميعاً خلا زوجها

وحدث أن رجلاً من « التونجا » مسّ جثة أمير ميت فحكم عليه بالحرمان التابوي عشرة أشهر قمرية لأن الأمراء مقدسون أحياء وأمواتاً، ومن يمس شعر أمير أو جسده أو عظمه أو يشترك في جنازته يطوق بالتابو. والمعروف في « نيوزيلانده » ان القارب الذي ينقل جثة لا يجوز استعماله مرة أخرى، وإنما يطرح أبداً على الساحل بعد طلائه بالبياض

ويذكر الأستاذ ليفي برول في كتابه « العقلية الأولية » أن الرجل من قبائل « المركيزا » إذا ذبح عدواً له حكم عليه باللامساس عشرة أيام يحرم عليه في خلالها مس امرأته وإشعال ناره، فلا بد له إذن من طاه يطبخ له طعامه. والزاد الذي يحمله الشريف على ظهره يحرم على جميع الناس إلا على صاحبه! كأن

التحريم أو « التتويب » قد انتقل من شخص الشريف إلى أشيائه ! وشعور الأمراء محرم لمسها ، ولو أن أميراً مس شعوره بأصبعه فعليه أن يدنيها من أنفه فى سرعة ليستنشق رائحة القداسة التى علقت بها !

وفى الاصحاح السادس من سفر العدد من التوراة كلام مسهب عن شيء يدعى النذير ، فقد أمر موسى أن يقول لبنى إسرائيل : أنه إذا انفرز رجل أو امرأة منهم لعمل نذر للرب . فالنذير يجتنب الخمر والخل ولا يشرب من نقيع العنب ، ولا يمر موسى الحلاقة على رأسه ؛ وينتهى النذر الاسرائيلى على نحو ما ينتهى التابو البولينزى ، وذلك بأن يحلق النذير رأسه عند مدخل خيمة الاجتماع المقدسة فيأتى الكاهن إليه ويضع على يديه طعاماً

ومن عادات اليهود ألا يقسموا بالله الكريم ، فهم يتورعون أشد الورع عن القسم باسم « يهوا » ، ومن يمس جثة ميت عد نجساً لمدة سبعة أيام ، وتنتقل نجاسته إلى كل شيء يلمسه ، وفى ختام الأيام السبعة يغسل لباسه ويستحم بالماء الطهور ؛ وكذلك النفساء فهى نجسة لا تجوز مقاربتها فى حال من الأحوال

أما السبت فله عندهم قواعد خاصة تتعلق بالمحافظة عليه والاستراحة فيه . حرم عليهم فيه العمل ، واشعال النار فى المنزل ، وطبخ الطعام ، والخروج من المنزل إلى مسافات معينة . والتاريخ يروى أن پومپى الكبير قد تغلب على اليهود فى القدس لأنهم لم يسعوا إلى مقاومته يوم السبت ، وان انتيوكرس الرابع السلوقى افتتح القدس عنوة لأنهم راعوا حرمة السبت

* * *

ليست تخلو فكرة التابو من خير ونفع ، ذلك انها كما يقول فريزر فى كتابه « عمل بسيشه » أساسُ الشعور بحق التملك واحترام الأوضاع الاجتماعية والرابطة الزوجية وما إلى ذلك كله مما يتصل به الناس فى حياتهم الخاصة والعامة . ولكنها على ذلك إنما تدل على انحطاط العقل ، وأخذه بالعنف فى فعل الخير والشر ، وحاجته إلى الحدود والحواجز ، وتعليله الأمور والأحداث على الطريقة الدينية الميتافيزيكية ما؟

محمد روحى فيصل

حول الفقه الاسلامى
والفقه الرومانى
للأستاذ محمد محسن البرازى
الأستاذ بمعهد الحقوق فى الجامعة السورية

صدفتنى أشغال شاغلة عن قراءة (الرسالة) ومطالعة كتب الأدب عامة منذ شهر وأكثر ؛ ولما عدت ، بعد تحررى من قيود الموانع ، إلى النظر فيما فاتنى من أعداد مجلتنا المحبوبة ، ألفيت فيها مقالين فى موضوع الفقه الاسلامى والفقه الرومانى ، أحدهما لمواطننا السيد على الطنطاوى بعنوان : « حول الأوزاعى أيضاً » (العدد الحادى والتسعون) ، والآخر للسيد صالح بن على الحامد العلوى السنغافورى بعنوان : « هل تأثر الفقه الاسلامى بالفقه الرومانى أم الحقيقة هى العكس » (العـــدد السابع والتسعون) ؛ فرأيت أن الواجب العلمى يدعونى إلى أن أقول كلمة فى الموضوع الذى عالجاه . فجئت إلى صاحب (الرسالة) أرجو منه أن يكرم وفادة كلمتى هذه ، وله الشكر خالصاً

يتلخص ماجاء فى المقالين فى مادتين اثنتين : (١) كون الفقه الاسلامى لم يؤخذ عن الفقه الرومانى ولم يتأثر به (٢) كون الفقه الرومانى مأخوذاً عن الفقه الاسلامى

إننى لاأريد أن أبحث الآن فى الشطر الأول من هذا الرأى ، لأسباب منها أنه لايجوز عندى الخوض فى موضوع خطير كهذا بكلمة عجلى ؛ وأما الشطر الثانى فلا أرى منتدحاً عن البحث فيه ، وأعتقد أنه يحتمل الايجاز

علم أصحاب المقالين أن الشريعة الرومانية هى أقدم عهداً من الشريعة الاسلامية ، وأنه لايمكن لعاقل أن يزعم مازعماه بصورة بسيطة مجردة ، ولذلك لجأ إلى تأييد دعواها بدليل ليس بأقل منها غرابة ، وهوأن الفقه الرومانى المعروف اليوم هو — فى نظرها — فقه جديد « لفقه طائفة من العلماء بعد أن اندثر الفقه الرومانى القديم »

فى كلمات لا تزيد على العشرين ، وفى أقل من مدة قلم ، يقضى الأستاذ الطنطاوى ببطلان ما أجمع علماء الحقوق والتاريخ بلا استثناء على صحته ، وأنكر مالم يختلف فيه اثنان منذ أن اشتغل الناس بدرس تاريخ الرومان وحقوقهم

ثم أيد الأستاذ العلوى دعوى زميله الطنطاوى ، معتمداً على ما كانت نشرته مجلة حضرمية منذ ربع قرن لأحد السادة العلويين الحضارمة ، فلم يخرج ماجاء به عن المناقضات

إن دعوى كهذه لايعبأ بها فى البيئات العلمية ، لأنها تخالف حقيقة علمية تعد بمثابة البداهة ؛ ولو أنها نشرت فى صحيفة غير موثوق بها ، أوبمجلة من عامة المجلات ، لما كنت حركت فى موضوعها قلماً ؛ ولـكنها نشرت فى مجلة لم يكتب لغيرها من المجلات العربية ما كتب لها من الحظوة عند ذوى العلم والأدب ، وسعة الانتشار فى مختلف الأمصار ؛ تصدر عن عاصمة الأدب العربى والفكر الاسلامى فى هذا العصر ، وينظر الناس إلى ما يكتب فيها ممثلاً بصورة إجمالية لآراء عمدتها الذين هم من أركان النهضة الأدبية العربية الجديدة ، ونزعة الاسلام الحديثة . لذلك خشيت أن يحسب علماء الغرب هذا الرأى العجيب معبراً عن اتجاه جدى للرأى العام الاسلامى المثقف ، فيحكموا علينا بما لا نستحقه

أحس صاحب المقال الأول بوهن دليله ، فنهج منهجاً غريباً بعد ذلك ، إذ طلب التدليل على عكس ما ادعى ، أى على أن الفقه الرومانى الحديث هوالفقه الرومانى القديم قائلاً : « ليأتونا بالأسانيد الصحيحة والروايات المضبوطة »

الله ! الله ! أيطلب من أحبار العلم التدليل على ماأقرته أجيال من الأعلام المحققين لمجرد دعوى انفرد بها أديبنا الطنطاوى ، وهو على الرغم من تفوقه على أكثر أقرانه بذكاء كان موضع إعجابنا ، لم يتح له أن يدرس الحقوق الرومانية أكثر من غيره من الطلاب فى معهد الحقوق بدمشق ، ولم يتأت له النظر فى تاريخ الحقوق ، ولم يقيض له بعد أن يطلع على ما ظهر فى العالم من مؤلفات فى الحقوق الرومانية وما اكتشف من آثار تاريخية

إن من يقدم على الجزم بأمر كهذا يحدث — إن صح — انقلاباً فى العالم العلمى لايعادله أى انقلاب عرفه التاريخ فى الدين أو السياسة أو الاجتماع ، لا يحق له أن يكتفى بأن يقول لهذا العالم العلمى : « دلل أيها العالم على صحة ما عكفت على دراسته

باعتباره صحيحاً منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً

البينة على من ادّعى؛ فعلى من يقول إن الفقه الرومانى الذى نعرفه الآن مختلق أن يثبت اختلاقه ويبين مختلِقه، ويظهر مكنون الفقه الرومانى القديم، أسوة بما يفعله العلماء إذ يكشفون القناع عن الوثائق التاريخية المزورة والكتب المنتحلة

لئن جاز فى نظرنا لأحد من النصارى أو اليهود المتعصبين أن يجزم بأن القرآن الذى بأيدينا هو غير القرآن الذى أنزل على محمد (صلى الله عليه وسلم)، وأنه مختلق من جماعة من علماء المسلمين الحديثين، مكتفياً للتدليل على ذلك بأن يقول لنا: «هاتوا دليلكم»، فقد حق كذلك لصاحبي القالبين المتحمسين للأسلام هذا التحمس أن يزعما ما زعماه

لقد جمع نصوصَ الشريعة الرومانية وآراء فقهائها حتى بدء القرن السادس المسيحى؛ تلك النصوص القانونية والآراء الحقوقية التى هي أساس لدرس الحقوق وبحثها فى جامعات العالم، ذلك الأمبراطور المتشرع الرومانى جوستنيان Justinien (المتوفى سنة ٥٦٥ ب. م) فى خلال ست سنين (٥٢٨ — ٥٣٤ ب. م) وأضاف إلى ذلك القوانين التى أصدرها؛ وقد عرفت هذه المجموعة الحقوقية منذ بدء القرون الوسطى ب «Corpus Juris civilis».

وكان بين العلماء الذين يشتغلون تحت رعاية الأمبراطور الفقيه أساتذة فى معهد حقوق بيزانس: (القسطنطينية)، ومعهد حقوق بيروت

إن هذه المجموعة الحقوقية قد انتقلتْ إلينا بنصها وفَصِّها، وهي مؤلفة من أربعة كتب أو مجموعات صغيرة: ال «كوديكس Codex»، وال «ديجست Digeste» وال «انستيتود Institutes»، وال «نوفل Novelles»؛ ولا تزال نسخ قديمة من هذه الكتب أو المجموعات القيمة محفوظة فى المكاتب الكبرى فى أوربا يرجع عهد بعضها إلى القرن السادس (ب. م)، أى إلى القرن الذى عاش فيه جامعها وواضعها الامبراطور جوستنيان نفسه

ومن أجلّ هذه النسخ المخطوطة نسخة من ال «ديجست Digeste» كتبها خطّاطون إغريقيون فى القرن السادس والقرن السابع (ب. م)، معروفة بال «فلورنسية Florentiene» لوجودها فى مدينة «فلورنسه» منذ سنة ١٤٠٦ [(١)]. وقد نشرت هذه المخطوطات مصورة تصويراً فوتوغرافياً، وحققها العلماء الاختصاصيون فى المخطوطات، ولم يطعن عليها طاعن؛ وعثر على مخطوطات كثيرة من عصر «جوستنيان» مكتوبة فى اللغة اليونانية على ورق البردى، نشر قسماً منها العالمان الألمانيان «ميتيس Mitteis» و «ويلكن Wilcken» سنة ١٩١٢ ونشر الأستاذ «جان ماسبيرو Jean Maspero» عدداً كبيراً من هذه المخطوطات المدونة على ورق البردى فى مجموعة متحف القاهرة (سنة ١٩١٠ — ١٩١٤) Catalogue des papyrus Grecs d'époque Byzantine بل إن المتاحف والمكاتب تحفظ أيضاً نسخاً مخطوطة أصلية لمجموعات قانونية سابقة لعهد «جوستنيان» كالمجموعة القانونية للأمبراطور «ثيودوسيوس Theodosius»، وكتاب المتشرع «غايوس Gaius» المعروف بال «Justitutes»، ومؤلفات أخرى، منها مؤلف معروف ب Fragmenta Vaticana وضع فى القرن الرابع (ب. م) وعثر عليه فى مكتبة الفاتيكان سنة ١٨٢٠

ثم إن الفقه الرومانى هذا قد عمل به بعد سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية فى روما، وبعد وفاة الامبراطور جوستنيان، وبعد سقوط الامبراطورية البيزنطية، وهذا أمر لم يختلف فيه العلماء المؤرخون. فبلاد فرنسا الجنوبية ظلت خاضعة لأحكام الفقه الرومانى بصفة حقوق عرفية حتى قبيل الثورة الفرنسية. هذا عدا البلاد التى تأثرت كثيراً أو قليلا بالحقوق الرومانية، كايطاليا وألمانيا، حتى إنكلترا بلاد العرف والتقاليد. وقد بقى الفقه الرومانى معمولاً به فى عصرنا هذا فى بلاد جنوبى أفريقية الخاضعة لأنكلترة

أما المناقضات التى وقع فيها السيد صالح العلوى نقلاً عن السيد العلوى الحضرمى، فأشير منها إلى ما جاء فى السطر الثانى من الجانب الأول من الصفحة ال «٧٨١» من الرسالة. فبعد أن قال إن الفقه الرومانى «اختفى ثم اكتشف، ولم يظهر ويعمل

(١) راجع تاريخ مخطوطات الحقوق الرومانية فى مقدمة العلامة «مومسن Mommsen» فى مجموعة جوستنيان التى قام بطبعها؛ وراجع ذلك مختصراً فى كتاب الحقوق الرومانية للأستاذ العلامة «جيرار Girard» ص ٨٣ وكتاب المؤسسات الحقوقية الرومانية للأستاذ الكبير «كوك Cuq» ص ٦١ هامش ٨

به إلاّ فى القرن الثانى عشر ، وانه لم يكن معروفاً حتى عند الرومان أنفسهم قبل القرن الحادى عشر » ؛ وقال فى السطر الـ « ٢٢ » من الصفحة نفسها : « ان دعوى اختفائه أكذوبة » ، ثم مالبث ان استند إلى قول العلامة « سافنيه » : « ان القوانين الرومانية لم تختف لأنها ظلت معمولاً بها إلى اليوم من غير انقطاع »

أما وقد صح لدى السيد العلوى قول « سافنيه » هـذا ، فهو مضطر إلى الاعتراف إذن بأن الفقه الرومانى المعروف لدينا الآن ، هو تلك « القوانين الرومانية التى لم تختف لأنهـا ظلت معمولاً بها إلى اليوم » ، وبرغم على التسليم بأن تلك القوانين الرومانية القديمة التى هى أقدم عهـداً من الفقه الاسلامى ، لم تختلق اختلاقاً ولم تلفّق تلفيقاً من قبـل العلماء الحديثين ، ولم تؤخـذ عن الفقه الاسلامى ، خلافاً لمـا ادعى . ولا أدرى كيف يورد قول سافنيه هذا ويؤيده ، ثم يحاول ، بعد القول المستشهد به بسطر واحـد ان يأتى بأدلة على اقتباس القوانين الرومانية من الحقوق الاسلامية

قلنا إنه لا يجوز مبدئياً طلب التدليل على أن الفقه الرومانى الحديث هو نفس الفقه الرومانى القديم لمجرد دعوى وحيدة فى بابها . ثم إذا قبلنا لزوم التدليل ، فمـا هى وسائل البينة ؟

إن السيد الطنطاوى يتطلب « الأسانيد الصحيحة ، والروايات المضبوطة »

ان البينات تختلف بحسب الأمور المراد اثباتها ؛ فاذا كانت هـذه الأمور غير مدونة بنفسها ، كالحديث الشريف[1] فلا بد حينئذ من ذكر الأسانيد وسرد الروايات ، واقامة الدليل على صدق الرواة ، إلى آخر ذلك مما هو معروف فى أصول علم الحديث . أما إذا كان المراد اثباته مدوناً بنفسه ، لم يعـد مجال حينئذ إلى الأخـذ بطريقة الرواية والاسناد ، وصار لابد من التدليل عليه بنسخته الأصلية التى وضع بها ، أو بالنسخة التى أخذت عن هذه .

(١) الحديث الشريف لم يدون كالمذكرات العصرية أو التآليف الموضوعة ، بل كان عبارة عن الأقوال التى كان ينطق بها الرسول «ص» فى مجالسه بين أصحابه وفى خطبه ومواعظه ، أو الأحكام التى كان يفصل بها الخلافات ، أو الأعمال التى كان يقوم بها والتى صارت تعتبر سنة يقتدى بها ، ولم يكن صلى الله عليه وسلم يأمر بتدوينها ، إنما حفظها أو حفظ قسما منها من سمعها من أصحابه فتناقلوها بروايات مختلفة فيا بينها فى بعض الأحيان . وهكذا انتقلت بطريقة السماع حتى شرع فى تدوينها بعد زهاء قرن ونصف قرن من تاريخ الهجرة

فالقرآن الكريم مثلاً ، لما كان قد دون فى العهد الذى نزل فيه ، وجمعت صحفه المدونة فى عهد الخليفة الأول ، وانتقلت إلينا نسخ مخطوطة منه كتبت فى عهـد قريب من عهد نزوله ، لم يلجأ إلى الرواية لاثبات صحته

وكذلك أيضاً شأن الشرع الرومانى الذى دوّن وجمع فى عهد جوستنيان ، فهو لا يثبت بالروايات والأسانيد ، ولكنه يثبت بنسخه المخطوطة القديمة التى هى من عصر جامعه ومصلحه جوستنيان . وهـذه النسخ قد عثر عليهـا ولا تزال محفوظة ؛ ولو لم يكن على الفرض ، بأيدينا منها ، إلا ما هو منذ القرون الوسطى ، لوجب أيضاً ألا نشك فى صحتها ، لأن علماء تلك القرون المظلمة لم يكن لديهم من الكفاية والمقدرة العلمية مايمكنهم من وضع حقوق راقية كالشرع الرومانى ، فالأولى ألا يشار إلى الروايات والأسانيد فى موضوع الحقوق الرومانية وغيرها من الحقوق التى دونت عند وضعها

هل بعد الوثائق الأثرية والنسخ المخطوطة القديمة حاجة لدليل على صحة ؟ إن القوانين والأحكام الحقوقية الرومانية المعروفة فى عهدنا هـذا هى نفس القوانين والأحكام التى عرفها الرومان فى القرن السادس الميلادى وقبله

قد يغضب صاحبا المقالين فيقولان إن هذه النسخ المخطوطة القديمة نفسها مصطنعة لفّقها الأوربيون ؛ فاذا بلغت بهما الحماسة الدينية القومية هذا الحدّ من إنكار الحقائق العلميـة التاريخية الراهنة لم يعد آنئذ مجال للبحث

ولكن هل يجوز لنا أن نتهم جميع علماء الغرب بلا استثناء بالتزوير ؟ وما الذى يسوغ لنا ذلك ؟ أو لا نجد بينهم أناساً وضعوا الحقيقة فى أعلى المنازل وجعلوها فوق كل شىء ؟ ألا نرى بينهم عدداً غير قليل دافع عما يعتقد أنه الحقيقة مخاصماً بذلك رجال الدين ، ومعادياً فى هذا السبيل السلطان الجائر ؟

ألم ينافح كثير من علماء المشرقيات عن ديننا الحنيف ، ونبينا العربى ، وحضارتنا الاسلامية ، ومدنيتنا الشرقية ، تجاه حملات المتعصبين من أبناء جلدتهم ودينهم ؟

حسبنا أن نذكر على سبيل المثال أسماء الفرنسيين : « جوستاف لوبون » صاحب كتاب حضارة العرب و « هوداس » و « مارسيه » ، مترجمى صحيح البخارى للفرنسية ، و « درمنغهم »

صاحب كتاب حياة « محمد » ، و « ماسينيون » مدرس العلوم الاجتماعية الاسلامية في كلية فرنسا ، وصاحب المؤلفات الكثيرة عن الاسلام ، ومدير مجلة المباحث الاسلامية ؛ ويكفينا أن ننوه بتلك الوقفة الشريفة التي وقفها هذا الأستاذ الأخير سنة ١٩٢٨ دفاعا عن المدنية الاسلامية ، ورده البليغ على المسيو « لويس برتران » الذي حمل على الاسلام والعرب في مقال نشرته في ذلك العام جريدة « الفيجارو » الباريسية

أيعقل ألا يوجد رجل واحد شريف منزه عن التزوير بين علماء أوربا من فرنسيين ، وألمان ، وانكليز ، ومجر ، وايطاليين ، واسبان ، وروس الخ . ؟ فلو لم يوجد إلا عالم واحد صادق يقول الحق ، لكان بلا ريب قد رفع صوته عالياً أمام هذه الفرية الفظيعة التي يتهم بها السيدان ، الطنطاوي ، والعلوي العالم في الغرب ؛ ولكنا شهدنا قبل مقالى حضرتيهما حرباً قلمية دونها حرب البسوس ، وخصاما علمياً دونه خصام الملل والنحل ، ودعاوى ذم وتزوير لا تجاريها دعاوى « آثار كلوزيل Clausel » الحفرية . ونحن نعلم أن العلماء في أوربا يتجادلون ويتناظرون في أمور نعدها فرعية وزهيدة

أضف إلى ذلك أن العلماء الاختصاصيين في الحقوق الرومانية ليسوا جميعاً من عرق لاتيني أو ثقافة لاتينية ، بل هم من مختلف الأعراق والأمم ؛ وثمّ علماء من الألمان هم جهابذة في الفقه الروماني ، أمثال « سافيني Savigny » و « ايهرينغ Ihering » لا يمكن أن نتهمهم بتعصب للرومان ، وقد ساروا جميعاً في ضوء الحقيقة التاريخية المقررة مطابقة الفقه الروماني المعروف في عصرنا للفقه الروماني القديم

لم يمنع العلماء الأوربيين عامة تفاخرهم بشرع الرومان الذي ورثوه من الاقرار باقتباس الرومان شيئاً غير يسير من شرائع الأمم الشرقية التي سلفتهم أو عاصرتهم مباشرة ، أو عن طريق الأغريق ، حتى أن عالماً عظيم القدر هو من أكابر الأثريين الأستاذ « ريفيو Revillou » الفرنسي وضع كتاباً دلل فيه على اقتباس قسم عظيم من أحكام قانون « الأثني عشر لوحاً » الروماني ، وهو أقدم قانون لدى الرومان من شريعة المصريين القدماء مورداً للنص الروماني والنص المصري ، ومبيناً ما بينهما من شبه لامراء فيه ؛ وبهذه الطريقة العلمية ، وبعد تنقيب وبحث مدة أعوام ، عمد إلى اثبات دعوى الاقتباس والأخذ ، لا بمجرد القول يثيره غرب الشباب

إن علماء يوجد بينهم أمثال « ريفيو » ، وأمثال المستشرق الفرنسي « هوداس » الذي يقول : « إن القرآن ليحوي بصورة كامنة جميع ما يمكن أن يصل اليه العقل البشري من معارف (١) » و « كولد زيهر » الذي يقول : « يجب على المرء إذا شاء أن يكون عادلاً أن يسلم بأن في نظريات الاسلام قوة فعالة متجهة نحو الخير ، وبأن حياة توافق هذه النظريات تستطيع أن تكون حياة لا تشوبها شائبة من الناحية الخلقية ؛ فهي توجب الرحمة لمخلوقات الله جميعاً ، وحسن النية في المعاملات ، والمحبة والوفاء ، وكبح غرائز الأثرة (٢) » ، والبارون « كارادي فو » الذي يكتب صراحة عن ابن خلدون : « انه لم يسبق قط لعقل من العقول أن يكون لديه فكرة في فلسفة التاريخ أكثر وضوحاً من فكرة ابن خلدون ؛ وأن ابن خلدون هو سلف علمائنا الاجتماعيين الحديثين الخ (٣) » . وعلماء آخرون هم في هذه المنزلة أو أسمى ؛ إن علماء كهؤلاء لا يمكن أن يزوّروا بداعي التعصب الديني شريعة يسمونها بالفقه الروماني ويقتبسونها عن الشرع الاسلامي ؛ ولا يعقل أن يسكتوا أمام تزوير كهذا

ثم إن بين أحكام الحقوق الرومانية ، وأحكام الشريعة الاسلامية ، ولا سيما فيما له صلة بالأحوال الشخصية ، وحقوق الأشياء (حق الملك وما يتفرع عنه) اختلافاً وتبايناً لا يدعان عدا الأدلة التي ذكرناها مجالا للشك بأن دعوى اختلاق الفقه الروماني من قبل علماء حديثين اقتبسوه عن الفقه الاسلامي ضرب من الخيال

فأولى بشبابنا ألا يكونوا أسرى عواطفهم من تعصب للدين والقومية ، وكره لأوروبا والثقافة الغربية ، فيسرفوا في القول حتى يجانبوا المنطق

إن الحقيقة فوق العاطفة والهوى ، والعلم لا وطن له . ثم إن في دعاواهم الغريبة وتهمهم الفظيعة ، بنيّة خدمة الاسلام ما قد يضرّ بالاسلام ويسيء بثقافة المسلمين الظنون

محمد محسن البرازي
أستاذ في معهد الحقوق بالجامعة السورية

(1) Houdas : l' islamisme P 13. edit Paris 1904
(2) Goldziher : Le Dogme et la loi de L' islam trad fr. P. 15.
(3) Baron Carra de Vaux : Les Penseurs de l' islam t = p 278. ed. Poris 1927

في الإصلاح العلمي :

الأزهـــــر

بين الجامعية والمدرسية

بقلم محمد طه الحاجري

تسيطر على الدراسة العاليـة فى مصر روحان ، ما زالتا تصطرعان وتنتضلان ، كما يصطرع الحق والباطل ، فى عنف وقسوة حيناً ، وفى هدوء وهينة حيناً آخر . إحداهما روح جامعية تقوم على تمثيل العلم فى أصح صوره وأدق معانيه ، وتهذيب العقل فى أوسع باحاته وأكمل مجاليه ، وتربية الملكات العالية التى يقوم بها ذلك العالم الصغير ، وتطلب الحقيقة فى مختلف أشكالها ، وبشتى وسائلها ؛ والأخرى روح مدرسـية تعتمد على قشور من العلم لا تغني عن العلم شـيئاً ، وتلقين لبعض الحقائق المقررة كأنها حقائق مطلقة ، وإغفال لحرمة العقل والملـكات الانسانية لأن الأمر أهون من ذلك فيما يزعمون

والأولى روح مطلقة تأبى التقيد ، بعيـدة الأفق لا يكاد يحدها حد ، إلا ما اقتضته طبيعة العلم واستلزمته أساليب التفكير الصحيح . والأخرى لا حياة لها إلا فى أثقال من القيود المرهقة ، وأسداد من الحدود الضيقة ، توقف الفـكر ، وتبلد العقل ، وتعطل المواهب ، وتجعل من الرجل آلة طيّـعة ، وكائنا منفعلاً لا فاعلاً . ففرق ما بين الروح الجامعية والروح المدرسـية ، هو فرق ما بين الروح الفاعلة المختارة ، والآلة المنفعلة المنقادة . تلك توجه العلم للعـلم ، وتطلب الحقيقة من أجل الحقيقة ، وتقدّر المسائل العلمية تقديراً ذاتياً ، لا يخضع للهوى ، ولا يتكيف بغاية معينة مرسومة ، ليست من العلم ولا من الحق ولا من الحياة الفاضلة . وهذه جعلت العلم مركباً إلى العيش ، ووسيلة إلى نوع من الحياة الدنيا ، وآلة صماء لتهيئة غرض محدود وإصابة هدف معين ، فوضعت له المناهج والرسوم ، وثقل بالأصفاد والقيود ، وأقيمت من حوله الأسداد والحدود ، وحصن من أن تصل إليه شعاعة من أشعة الروح الجامعية النفاذة ، فتثير فيه طبيعة الثورة على تلك اليد الثقيلة الباطشة

وتتنازع الروحان الهيمنة على العلم ، ولـكن الغلبة للروح الجامعية مهما أقيمت فى وجهها الصعاب ، واكتأدت سبيلها العقاب ؛ ذلك أن قوتها من قوة العلم ، والعلم قوى غلاب ، لا يصده صاد ولا يغلبه غالب . والروح المدرسية روح مصطنعة ، أوجدها الضعف ، ودعمها الاستعمار ، وقام من حولها دعاة الذلة والمسكنة يسندون ما وهى ، ويرأبون ما تصدع ، ويلونونها بألوان فاقعة تأخذ بأبصار الغفل السذج

هذا إلى أن الروح الجامعية روح عريقة فى مصر تضرب إلى حـدود بعيدة من تاريخنا العلمى ، وتتمثل فى ذلك التوثب الفكرى المجيد الذى يبدو — فى أروع مظاهره — فى ذلك التراث العلمى الذى خلفه أجدادنا من رجال الأزهر : جامعة العلم ومثابة العلماء مدة من القرون مديدة ، جديرة أن تلبسنا ثوب الفخر ، وتقوى فى نفوسنا الاعتزاز بالروح الجامعية ، وتبث فينا القوة على تعززها ودفع المعتدين عليها ، دون أن تفرقنا فى ذلك الأهواء المقيتة ، وتوزعنا العصبيات الفارغة . بل كلنا أمام العلم والتاريخ جامعيون : نستمد من روحنا العلمية وتاريخنا الجامعى قوة على قوة وعزة فوق عزة ، ونستمسك بجامعيتنا ونستعصم بهـا من عوامل الضعف أو التسفل ، ومن منازعة أهواء الحياة ، والتفريط فى جانب العلم

فلست أذهب مذهب القائلين بأن الروح الجامعية فى مصر وليدة الجامعة الأولى أو الثانية ، أو أنها جاءت إلينا من أوربا مع العائدين إليها من المصريين ، أو مع الأساتذة الأجانب القادمين أو المستقدمين ؛ فلنا جامعيتنا الأصيلة المنبعثة عن أقدم الجامعات ، ولنا تقاليدنا العلمية الصحيحة التى تشبع فى أنفسنا الرغبة العلمية وترضى فيها العزة القومية ، وتبعث فيها المضاء والحمية ، وتعصمنا من مهاوى الروح المدرسية التى يتكاتف ربائب الاستعمار وأبواقه وأنصاره والمخدوعون فيه والعمون عنه على تثبيت أقدامها ، ونشر سمومها ، وتزيينها فى أعين الغفل الواقفين عند الظواهر ، المفتونين عن الحقائق ، فى أسماء سموها ما أنزل الله بها من سلطان : من النظام والجمال ومراعاة الزمن ومسايرة الحياة ومطالب العيش ، وما إلى ذلك من العبارات الخادعة

وتلك هى الخدعة التى تخشى أبلغ الخشية وأعظمها اعتلاجاً

فى القلب أن يقع الأزهر فى حبالتها ، وأن يتردى فى مهواتها . ونرجو ألا يكون اندفاعه فى سبيل الاصلاح والتجدد مغشياً على بصره أن يتنبه إليها ، وألا تكون مسايرته لروح العصر صارفة له عن روح العلم وصبغته التى صبغ عليها ، وألا ينسيه جديده الذى يشتد عدواً فى طلبه وتحقيقه عن تقاليده العلمية الأولى التى تفخر بها مصر والشرق العربى بله الأزهر نفسه

وإنه لحقيق بالأزهر فى وقاره ورزانته ، وزمامه بيد الأستاذ المراغى فى بصره وحكمته ، ألا يمنعه طلب الجديد عن التمسك بتقاليده ، وألا تخدعه مطالب الحياة عن روحه الجامعية التى قام عليها بناؤه ، وارتفع بها مجده ؛ ولعله لا يني فى تمفية ما خلفه العهد المشئوم من آثار لتلك الروح المدرسية المشئومة ، كانت هى القاضية عليه ، لو طال بها الزمن فيه ، فى غفلة من هؤلاء وإغماض من أولئك ، لولا لطف الله بنا ورحمته عليه

إنما ينبغى أن يكون أساس الاصلاح فى الأزهر هو الأخذ بأساليب البحث الحديثة ، ومجاراة الرقى العلمى فى مجالاته العليا ، ومسايرة الحركة العلمية فيما يتصل بنواحى دراسته ، والاتصال بالحياة المصرية اتصالاً نبيلاً يعينه على تأدية رسالته ، إذ يهيئ له وسائل الاصلاح الاجتماعى ، ويمهد له سبل الدعوة إلى الحق والفضيلة والدين ، مع الاحتفاظ بتلك الروح الجامعية التى تأبى أن تتعبد لـما دون العلم من المطالب الدنيا ، وتلك الصوفية العلمية التى تفرض على صاحبها الفناء فى العلم ، والاندماج فى الدرس ، والترفع عن الدنيات . وللأزهر من ...يعه فى ذلك شواهد باهرة وآيات ظاهرة : فليس فى ذلك القول ما يسوغ لقائل أن يرميه بأنه خيال شاعر أو حلم نائم

لا ! بل تاريخ العلم كله ، وسير العلماء الغابرين والمعاصرين ، شاهد بأن الروح العلمية الخالصة التى ترفع العلم فوق كل اعتبار ، وتذهب به إلى منزلة من التقديس عالية ، هى وحدها التى ينبغى أن تسود جامعات الدرس ومعاهد البحث ، وهى وحدها التى تخلع على صاحبها ثوب المجد ، وترفعه إلى منزلة الخلود

فليس « تمصير » الأزهر أن ينزل به إلى تلك الدركة الدنيا من الحيـاة حيث يضطرب الناس ويتمايشون ، وأن يعد أهله لمرافق الحياة وقضاء ضرورات العيش ليس غير ، ليصير أحدهم معلم صبيان ، أو مأذون قرية ، أو امام مسجد ، أو واعظاً فى مدينـة . وتصبح تلك الجامعة الكبرى ولاهم لها إلا تخريج أولئك وتزويدهم بمـا لابد منه لأمثالهم ! وياضيعة التاريخ المجيد إذن ، ويا هوان الاسم الكبير الضخم ، ويا للسخرية من تلك الصفة الجامعية التى وسموا بها تلك المدرسة !

كم يمتلئ صدري أسى وحسرة حتى ليكاد قلبى أن يتفطر حين أشعر بذلك المصير الذى أخشى أن يهوى إليـه الأزهر فى سبيله إلى الاصلاح ، ومسراه نحو التجديد ، لولا أمل يغمر قلبى فى حكمة الأستاذ الأكبر وبصيرته ، وروحه الجامعية التى تتجلى فى أحاديثه وخطبه ، وفى أنه يترسم الأستاذ الامام « قدس الله سره » فى خطواته الاصلاحية ، ومراميه العلمية

إن الضعف النفسى هو الثغرة التى تنفذ منها الروح المدرسية إلى الأزهر . فما أكثر ما تضيق النفوس بالكمال ، وتنوء بتكاليف المثل الأعلى . ولكن الأمر فى الاصلاح العلمى يجب ألا ينزل على حكم الضعف ، فان العلم يتطلب بطبيعته القوة المتحكمة ، والعزمة المصممة ، كما يجب أن يسمو المصلح فوق الاهواء فلا يداهن فيها ، وفوق شهوات النفوس فلا يتألف عليها أو يتملقها

أنا لا أقول إن « العلم زبال » كما كان يقال فى الأزهر ، فقد تطورت الحياة الاجتماعية تطوراً لا يسيغ ذلك القول ؛ ولا أقول إن العالم يجب أن يعيش فى صومعة يتابع فيها دراسته ، ويوالى فيها تأملاته ؛ أو يقنع بالدون من العيش فى مقابل طموحه العلمى ، فهذا مالا سبيل إليـه مطلقاً ؛ ولكنى أقول يجب ألا يكون العيش غاية العلم ، فانه متى صار أداة لمرافق الحيـاة وجب أن يتكيف بمـا تقتضيه ، لا بمـا يقتضيه البحث العلمى والحقيقة المنشودة . وأى مسخ للعلم وتحويل له عن سبيله أشنع من هذا ؟ وانى أعيذ الأزهر — وله من ماضيه المجيد معاذ ومستعصم — أن يحقر تاريخه ، وينكر ماضيه ، ويكون صاحب هذه الجناية . ثم لعله مع هذا لا يوفق فى تهيئة الترف والرفاهية والحياة الكريمة لرجاله ، ويالها من عثرة !

وما أحقه إذن بقول الله جل شأنه : خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين

على أن الحياة لا تضن على الرجل الكريم الذى يبذل نفسه فى سبيل العلم بما يضمن له راحة البال ، وهدوء الضمير ،

وكرامة النفس، ومتاع العيش. ومن فوق ذلك كله مايستشعره من سعادة لا تعـدلها سعادة فى كل لحظة من لحظات حياته العلمية الموفقة

ولقـد أحس بأن الناس بدأوا يمجون ذلك الصنف من المعاهد الذى تهيمن عليه الروح المدرسية. وبدأت الحياة تلفظ هؤلاء الذين انطبعوا بطابع تلك الروح، فصاروا بالآلات التى تملأ لتفرغ أشبه منهم بالأحياء الذين حيويتهم دائبة على الخلق والابداع. ولئن لم يتجل هـذا المظهر اليوم تجلياً قاطعاً يمتاح الشبهة، فان الحياة صائرة إليـه، مامن ذلك بد؛ وبين أيدينا مقدماته جلية

فليعرف الأزهر ذلك وليتدبره تدبر الحكيم البصير، ولا يصرفنه المتاع العاجل عن العاقبة القريبـة، وعن حسن تفهم الأمور على وجهها الصحيح، وعن النظر فى منطق الحياة الذى لا يتخلف؛ ولا تغرنه الحياة الدنيا عن الآخرة، فمـا متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل

محمد طه الحاجرى
بكلية الآداب

الجو فى القصـــة

بقلم محمود عزت موسى

قبل أن نستعرض بعض مسائل هذا البحث، نتقدم بسؤال صغير: هل يخلق جو القصة قبل تكوين القصة ذاتها، أى قبل الألمام التام بكل أوضاعها وشخصياتها وحوادثها؟ إن الاجابة على هذا السؤال قد تبدو مرتبكة، كثيرة الشعاب، والواقع غير هذا، فان أول ما يجب أن نفهمه أن الجو هو الذى «يؤدى» أو هو الذى يساعد على تأدية عملية الخلق فى الرواية أو القصة، ومعنى هذا أن القصة لا يمكن أن تخلق أو تتكون أجزاؤها بعضها إلى بعض، كما لا يمكن أن تمر على أدوار التكوين حتى تصب فى قالبها الأخير قبل أن يسبق هذا وجود الجو الذى تقع فيه هذه العمليات، إذ أن القصة كأى شىء حى يحتاج إلى الجو الذى يؤهل له عملية الظهور فى الحياة والنمو والاكتمال

ذكرت (آنا جريجو فنا) فى مذكراتها عن زوجها فيدور دوستويفسكى القصصى الروسى الخالد أنه لما كان فى سويسرا، كان كثير الاضطراب والملل والسأم، وأنه لم يألف سويسرا ولا أهلها كثيراً، بل كان كثير التحنان إلى روسيا دائم الشوق إليها. وقد بدا هذا ظاهراً فى رسائله التى كان يبعث بها إلى بعض خلصائه فى روسيا، وقد كان دوستويفسكى فى تلك الآونة التى قضاها فى سويسرا يعانى ضيقاً مالياً خانقاً؛ وكانت الديون التى ألزم نفسه أداءها بعد وفاة أخيه ميشيل تجعله يرى فى سويسرا مأمناً لو كان رجلاً يلوذ بالفرار من المسئوليات والدائنين الذين ينتظرون عودته إلى بلاده لمطالبته بسـداد ديونهم أو زجه فى سجن المدينين حتى يوفى دينه . . لـكن هذا الرجل العظيم لم يغفل قط يوماً أثناء إقامته فى سويسر الحنين إلى روسيا حتى أتيح له ذلك بعد سنوات. فلم يكد يصل إلى وطنه حتى أحس بأن الحياة قد عادت تدب فى عروقه قوية مشبوبة . . مع أن وفود الدائنين لم تكن لتنقطع عن زيارة بيته على أثر وصوله!

كتب دوستويفسكى فى بعض رسائله «إننى أحتاج إلى الجو الروسى حتى أستطيع أن أكتب كما أريد» وهـذه العبارة الدقيقة تكاد تحل بنفسها موضوع هذا البحث. فان هذا القصصى على الرغم من أنه عاش فى روسيا طوال حياته إلا سنوات قليلة قضاها فى الخارج، ومع أنه استطاع أن يختزن فى ذاكرته وقلبه وعقله الباطن كل الاحساسات والحوادث، وأن يخلق الجو الروسى فى كافة رواياته التى ألفها فى سويسرا كنتيجة للاعتبارات السابقة، إلا أنه مع هذا كله خشى إن هو ابتعد طويلاً عن وطنه أن يخف ويتضاءل مقدار الجو الذى اختزنه فى حياته الماضية، وشعر بحاجته — على حد التعبير الادبى — إلى أوكسجين روسى يملأ رئتيه. لأنه استشعر بأنه مهما استنهض كل الذكريات فى خلق الجو فانه فى حاجة إلى أن يكون دائماً فى ذلك الجو ليطمئن على فنه من أن يختلط بأجواء أخرى فيفسد وتضعف روعته. أو تشيع فيه الفوضى والاضطراب

إن الفنان العظيم لابد أن يكون له جو خاص، هذا الجو هو ذوب مواهبه، هو العالم الذى يضع فيه أفكاره، ويخلق بين جنباته أعماله الفنية؛ فاذا رأينا رجلاً مثل دستويفسكى يحتاج إلى

جو روسيا لتكوين أعماله الأدبية ، فهو يعطى لهذا الجو شكلا ولونا ورائحة تختلف عن غيره من سائر القصصيين الروسيين وإن اتفقو جميعاً فى شىء واحد ، وهو الجو العام لبلادهم ، إلا أن لكل منهم جوه الخاص . ومن هذه النقطة تتفاوت أقدار الفنانين تبعاً لقدرة كل منهم وسمو فنه وحذقه عن الآخرين

والقصصى الذى لا تلمح فى عمله جواً خاصاً به ، ولا تحس بهذا الجو أو وجوده ، أو ترى جوه خليطاً من تأثرات شتى ؛ هـذا القصصى لا يمكن أن يكون قصصياً صحيحاً . لأن التركيز ينقصه ، بل هو قصصى « أكتسب » فن القصة اكتساباً ، والتقط موهبته الفنية من مواهب الكثيرين ، واستلب من كل الأجواء الأدبية التى عاش فيها شيئاً . ليعيش لحظات على التقليد أو المحاكاة . وهذا الفنان تبدو حياته الفنية مهددة دائماً بالموت والانتهاء ، لأنه شائع بين كافة الفنانين ، لاشخصية له بينهم

إن أهمية وجود الجو فى القصة لاحد لها . فان هذا الجو هو الذى تخلق فيـه الشخصيات والحوادث ، وكلما كان القصصى أو المصور ، أو الموسيقى ، أو الشاعر ، مؤمناً بالجو الذى يعيش فيـه ارتفع فنه إلى الذروة ، واستطاع أن يبرع فى ايضاح عمله الفنى

قد تكون القصة — فى موضوعها — بسيطة ، لاشـذوذ فى حوادثها ، ولا مؤثرات مفتعلة كما نرى فى القصص الرخيص ، ومع هذا فان القصصى يستطيع أن يسمو بالحادثة الصغيرة إلى أوج الفن القصصى ؛ وذلك لأن طريقة العرض والتقديم والجو الذى تنطلق فيه القصة هى التى تحيا بها القصة . ومن هنا فقط نستطيع أن نقارن ونفاضل بين القصصيين ، فان القصصى لا يمتاز عن غيره بكثرة الاغراب فى الحوادث ، بل هو يمتاز بجوه ، هذا الجو الذى تحيا فيه شخصيات قصصه ؛ حتى ليشعر القارئ بأنه يعيش مع تلك الشخصيات ، وبهذا يحس القارئ أنه أمام عمل فنى مجيد ، جدير بالتأمل العميق ، لايمكن أن يذهب أو يضمحل بعـد قليل كما تذهب صور الحوادث التى يقرأها الانسان فى الصحف ، والتى يعتقد بعض الناس — خطأ — أن هذه الحوادث من القصص ، وهذه الحوادث فى المعنى الفنى أحط أنواع القصة وأكثرها تفاهة

ولنقرب هذا ، نقول إن كثيرين يسجنون مثلاً ، فاذا خرج أحدهم من السجن وأحببت أن يورد لك شيئاً عما رآه وأحسه فى المدة التى أمضاها فى السجن اقتصر على ذكر الحوادث ، وهذا شىء عادى يمكن لكل انسان أن يفعله ؛ بينما لايعمد إلى ذلك الفنان الذى يعيش فى جو السجن ، فهو يرى الحوادث التى وقعت له فى السجن فى المكانة الثانية . أى أن جو السجن ساعد مواهبه على أن يكون شخصاً ايجابياً لخلق الاحساسات والتأملات والأفكار ، بعد أن انعكست عليه حوادث السجن المختلفة ، فأخرجها على النحو الذى أحس به ، وهذه هى شخصية الفنان . إذ أن الحادثة تمر به فلا تعبر بسيطة كما تعبر بسائر الناس ، ويرى المنظر ، فلا يراه كما يراه غيره بصورته الظاهرة ؛ بل يراه بعينه الفنية التى تنفذ إلى أبعاد شتى لايمكن أن تخطر على ذهن عادى ، أو تلفت شعوره

إن ثقافة الفنان وسعة اطلاعه لاتكفيان لكى يكون القصصى كاتباً مجيداً ، يستطيع أن يخلق الجو القصصى ؛ وقد يبرع القصصى فى تكوين القصة من كل جوانبها ، ولكنه يفشل فشلاً تاماً فى إيجاد الجو ، ولنضرب المثل على هذا نقول : إن الأغانى الريفية تحس فيها حرارة الايمان بالبيئة ، وهى على الرغم من صراحتها وخلوها من الزخارف الكثيرة التى تفسد طبيعة الأغانى وتباعد بينها وبين الحقائق ، وقربها من الطبيعة وتعبيرها المبين عن مشاعر انسانية مأخوذة من البيئة هى فى قيمتها الفنية أسمى من الأغانى التى لاتعتمد على الجو ، بل تعتمد على الامعان فى التأثير بذكر الهجر ، والوصال ، والدموع ، وما إلى ذلك من العواطف التى يمكن حشدها فى كل أغنية فى أى اقليم . وقد تكون الأغنية الأخيرة فى تجويدها ورقتها وزخارفها ، أحسن من الأولى صنعاً ، إلا أنها مفقودة الطابع

وعلى هذا الوضع نقول بأن « الجو » لايمكن أن يخلق عند الفنان إلا إذا كان مؤمناً كل الايمان بالبيئة ، وحقيقة الفن الذى يعالجه . . . ؟

محمود عزت موسى

للتاريخ

الرافعي

بقلم تلميذه وصديقه
الأستاذ محمد سعيد العريان

« بيان كأنه تنزيل من التنزيل ، أو قبس من نور الذكر الحكيم » سعد زغلول (١)

بيني وبين الأستاذ مصطفى صادق الرافعي عهدٌ وذمّة ، وله عليّ حرمةُ المعلّم والأب والصديق ؛ أفَترى كل أولئك يمنحني الحقّ أن أكتب عنه كما عرفتُه ، وأخذتُ عنه ، واستمعتُ إليه ، واستمتعت بفنّه وأدبه ومجلسه ؛ أم تراه سيغضب إذ يراني أتناول حياته وأدبه فأنشر منهما على الناس ، ثم لا أنبئه عما اعتزمتُ إلا حين تنبئه الصحائفُ المنشورة ، على حين أجالسه كل مساء . . . ؟

وإني لحريص على رضاه ، وما أعلم أنه يغضبه أن يحسن رأيي فيه أو يسوء ؛ فانه ليعلم علمي أن ذلك حق الأدب ، لا يمنع منه تفاوتُ المنازل أو تداني الرتب ، ولا يؤثر فيه حق المعلم والأب والصديق ، بل لعله إذ يغضب أن يكون غضبه من أنه يؤثر العيش في عزلته التي رضيها لنفسه ، بعيداً من ضوضاء الحياة وصخب الناس ، منعزلاً في (طنطا) الحبيبة إليه ، عن مجالي الأدب ومزدحَم المتأدبين في (القاهرة)

على أني إلى ذلك لا أستطيع أن أردّ طلِبة للأستاذ الزيات ، وهو قد طلب إليّ أن أكتب هذا الفصل عن الرافعي ، على علم بمنزلته عندي ومنزلتي عنده ؛ أفتشفع لي هذه المعذرة عند الأستاذ الرافعي أم سيشفع لي الأستاذ الزيات . . ؟

***

تمهيد :

سمعت اسمَ الرافعي لأول مرة مقترناً إلى نشيده الخالد : « اسلمي يا مصر . . . » في حفل حاشد بطنطا ؛ وكان لاسمه يومئذ في أذني رنينٌ عذب ، امتزج بأنغام ذلك النشيد ، وتألف لي منهما لحن عُلويٌّ ساحر ، فيه جمال وعذوبة ، وفيه اعتزام وقوة . على أني لم أكن أعرف يومئذ أهو الرافعي صاحب (الأخبار) (١) ، أم رافعيٌّ آخر ، يجمع بينهما وحدة اللقب وشرعة الوطنية

ومضت سنوات ، وشدوت من العلم ما شدوت ، وإذا صديق يدفع إليّ كتاب « رسائل الأحزان »

كنت يومئذ في بُكرة الشباب ، في تلك السن التي تدفع الفتى إلى الحياة بعينين مغمضتين ، وفكر حالم ، ورأس يزدحم بالأماني ؛ وقلب مملوء بالثقة ؛ ثم لا يكاد يفتح عينيه على حقائق هذا الوجود ، حتى يعرف أن دنياه من دنيا الناس ، ويحسّ الفرق بين عالم قلبه ، وعالم حسّه ، وتسخر منه الدنيا سخريتها الأليمة ؛ فيلجأ إلى وحدته الصامتة يذرف دمع عينيه ودمع قلبه ، فلا يطرب إلا لأنغام الحزن ، ولا يُسرّى عنه إلا رسائل الأحزان . . . !

واستهواني عنوان الكتاب ، فتناولته أقلّب صفحاته ، لا أكاد أفهم جملة إلى جملة . . حتى انتهيت إلى قصيدته « حيلة مرآتها » فاذا شعرٌ عذب يخالط النفس ، وينفذ في رفق إلى القلب ؛ وإذا أنا أعيدها مرة ومرة ، فلا أدع الكتاب حتى أستظهر القصيدة . وحبَّبَ إليّ هذا الشعر الساحر أن أعود إلى الكتاب فأقرأه في رويّة ومهل لعلني أن أستدرك ما فاتني من معانيه ؛ وأدّخر لنفسي قوةً من سحر بيانه ، وصدق عواطفه ؛ وعُدت اليه أقرؤه قراءة الشعر ، أفهمه بفكري وشعوري ، وأنظر فيه بعينيّ وقلبي ؛ فاذا الكتاب يكشف لي عن معناه . .

وأحببتُ الرافعي من يومئذ ، فرُحتُ أتتبّع آثارَه في الصحف والكتب ، لا يفوتني منها شيء . وأشهد ، لقد كنت أجهد جهداً شديداً في فهم كتابة الرافعي ؛ لأني لم يكن لي عهد بمثلها فيما أقرأ ، وما كنت أقرأ من قبلُ إلا لازجاء الفراغ ، ألتمسه في ذلك النوع الهيّن من أدب القصص والصحف ؛ على أني كنت إلى جانب ذلك أحب الشعر ، أقرؤه فأفهم ما أقرأ ، فكان لي من ذلك ما أعانني على فهم الرافعي ، ثم الاعجاب به من بعد ، ثم ألا يعجبني إلا مثلُ ما يكتب . . . .

(١) من كتاب لفقيد الشرق الزعيم سعد زغلول إلى الرافعي ، في تقريظ كتابه « إعجاز القرآن »

(١) هو المرحوم أمين بك الرافعي صاحب جريدة (الأخبار) المصرية ، وابن عم الأستاذ مصطفى . . .

صلتي بالرافعي:

كنت أعرفه وأسمع عنه، على حين لا يعرفني ولا يسمع بي، وليس عجيباً؛ وكنت ألقاه في الطريق منطلقاً إلى غرض، يهز في يمناه العصا، ويتأبط بيسراه عديداً من الصحف والمجلات والكتب، واسع الخطو لا يتمهل، ماشياً على حيد الطريق لا يميل، ناظرا إلى الأمام لا يتلفت إلا حين يهم باجتياز الشارع؛ فإذا ألقيت إليه تحية، رفع يمناه بالعصا إلى رأسه من غير أن ينظر عنة أو يسرة أو تضيق خطاه؛ وكنت أرى ذلك فأحسبه نوعاً من الكبر وأرستقراطية العلماء، فباعد ذلك بيني وبينه إلى حين . . .

ففي خريف سنة ١٩٣٢ اجتمع بطنطا طائفة من الشباب على تأليف رابطة أدبية باسم «جماعة الثقافة الاسلامية»، تقوم أغراضها على العناية بشؤون الأدب والاجتماع، والعمل على إحياء مجد العرب والاسلام. وتذاكر المجتمعون فيمن يمكن أن ينضم إلى الجماعة من أهل الرأي لتقوى به على تنفيذ أغراضها، فكان اسم الرافعي أول هذه الأسماء

وذهبتُ اليه عن أمر الجماعة في وفد ثلاثة، فلقينا الرجلُ مرحِّباً مبتسما وقادنا إلى (دار كتبه)، ثم جلس وجلسنا؛ وفي تلك الغرفة التي تتنزل فيها عليه الحكمةُ ويُلقَى الوحي، جلسنا إليه ساعة يجاذبنا ونجاذبه الحديث ما نكاد نشعر أن الزمن يمر

كان جالساً خلف مكتب تكاد الكتب من فوقه تحجبه عن عيني محدثه؛ وعن يمينه وشماله مناضد قد ازدحمت عليها الكتب في غير ترتيب ولا نظام، تطل من بين صفحاتها المطوية قصاصات تنبئك أن قارئها لم يفرغ منها بعد، أو أن له وقفة عند هذا الموضع من الكتاب سيعود إليها؛ وعلى حيطان الغرفة أضونةُ الكتب المتراصة، لا يبدو من خلفها لون الجدار . . .

ومضى يتحدث إلينا حديث المعلم، وحديث الأب، وحديث الصديق؛ فما شئتَ من حكمة، وما أكبرتَ من عطف، وما استعذبتَ من فكاهة؛ وللرافعي فكاهة رائقة يخترعها لوقتها لا تملك معها إلا أن تضحك وتدع التوقر المصنوع؛ على أن له في فكاهته مذاهبَ عقلية بديعة، تحس فيها روحه الشاعرة، وفنه البكر، وحكمته المتزنة، وسخريته اللاذعة؛ ويكاد يكون كثير من مقالات الرافعي برهاناً على ذلك، فقلما تخلو إحداها من دعابة طريفة أو نكتة مبتكرة

وطال بنا المجلس وخشينا أن نكون قد أثقلنا عليه فهممنا بالانصراف، وإذا هو يطلب إلينا البقاء، ويلح علينا في تكرار الزيارة، ويكشف لنا عن سروره بألا نُغِبّ مجلسه، وعرفت الرافعي عرفا تاماً من يومئذ فلزمته، وعرفني هو أيضاً فأصفاني عطفه ومودته

اختبار!

وجلست إليه في الزَّورة الثانية وبين يديه صحفه وكتبه، فدفع إليّ صحيفة يومية كان منشوراً فيها يومئذ قصيدة لشاعر كبير، وطلب إليّ رأيي في القصيدة. لم أتنبه ساعتئذ إلى غرضه، وحسبته يقصد إلى أن يشاركني في لذة عقلية أحسها في هذا الشعر؛ فتناولت الصحيفة وقرأت القصيدة، ثم دفعتها إليه وقد أشرت بالقلم إلى عيون أبياتها ورأيي فيها، وتناولها مني ليرى اختياري، فما عرفتُ إلا وقتئذ أنه كان يختبرني؛ ولكني — والحمد لله — نجحتُ في الامتحان قدراً من النجاح . . . !

وتكرر هذا الاختبارُ مرات وهو لا يحسبني أدرك ما يعني؛ على أن إدراكي هذا قد جعلني من بعدُ أكثرَ تدقيقاً في اختيار الحسن مما أقرأ. وأولاني ثقته على الأيام، فكان عليّ من بعدُ أن أقرأ أكثر ما يُهدَى اليه من الكتب، لأشير له إلى المواضع التي يصح أن يقرأها منها، وأدع ما لا جدوى عليه من قراءته ضناً بوقته؛ وكنت أنا أكثر ربحاً بذاك . . .

الشيخ الرافعي . . . .

كثير من الذين يقرأون للرافعي ويعجبون به، لا يعرفون عنه إلا هذا الأدب الحيّ الذي يقرأون؛ بل إن أكثر هؤلاء القراء ليتخيلونه شيخاً معتجر العمامة، مطلق العذبة، مسترسل اللحية، مما يقرأون له من بحوث في الدين، وآراء في التصوف، وحرص على تراث السلف، وفطنة في فهم القرآن، مما لا يدركه إلا الشيوخ، بل مما لا يدركه الشيوخ . . . وكثيراً ما تصل اليه الرسائل بعنوان: «صاحب الفضيلة الشيخ مصطفى صادق الرافعي . . .» أو «صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر . . .»

ومن طريف هذا الباب رسالة جاءته من (حلب) منذ قريب، يبدي كاتبها دهشته أن يرى صورة الرافعي منشورة في

(الرسالة) إلى جانب مقالته فى عدد الهجرة ، مطربشاً ، حليق اللحية ، أنيق الثياب ، على غير ما كان يحسب ؛ ويتساءل كاتب الرسالة : لماذا ياسيدى أبدلتَ ثياباً بثياب ، وهجرتَ العمامة والجبة والقفطان ، إلى الحلّة والطربوش ؟ ألك رأى فى مدنية أوربا وفى المظاهر الأوربية غير الرأى الذى نقرؤه لك . . . ؟ »

وما كان هذا السائل فى حاجة إلى جواب ، لو أنه عرف أن الرافعى لم يلبس العمامة قط ، وهذا لباسه الذى نشأ عليه منذ كان صبياً يدرج فى طربوشه وسراويله القصيرة ، يوم كان تلميذاً يدرس الفرنسية إلى جانب العربية بمدرسة المنصورة . . .

نشأته :

على أن نشأة الرافعى كان لها أثر بالغ فى هذا الاتجاه العقلى الذى برز فيه وتفرّد به ؛ فهو قد نشأ فى بيت له نسب عريق فى الاسلام . وأنت إذا رجعت إلى تاريخ القضاء فى مصر إلى قرن مضى ، رأيت لاسم (الرافعى) تاريخاً فى كل ديوان من دواوين القضاء والافتاء . وقبل نزوح الشيخ محمد الرافعى الكبير من (طرابلس الشام) لم يكن معروفاً لمذهب أبى حنيفة أتباع فى مصر ؛ فهوشيخ الحنفية فى هذه الديار غير منازع ، وقد تخرّج على يديه أكثر علماء الحنفية الذين نشروا المذهب ، ومن تلاميذه المرحوم الشيخ محمد البحراوى الكبير ؛ كما تخرّج على يدى أخيه الشيخ عبد القادر الرافعى كثيرٌ منهم ، ومن تلاميذ أخيه شيخ الشيوخ الآن فضيلة الأستاذ محمد بخيت مفتى الدولة السابق ، مدّ الله فى حياته . وقد مضى زمن كانت فيه وظائف الافتاء كلها محبوسة على (آل الرافعى) ، حتى ذكر اللورد كروفر فى بعض تقاريره : « إن من هذه الأسرة أربعين قاضياً شرعياً » . . وأبو المترجم له (الشيخ عبد الرازق الرافعى) كان رئيساً للمحاكم الشرعية فى كثير من الأقاليم ، وكان رجلا ورعاً له صلابة فى الدين ، وشدة فى الحق ، ما برح يذكرها مع الاعجاب معاصروه من شيوخ طنطا . وبيت الرافعى فى (طرابلس الشام) من البيوت الرفيعة ، وما يزال كعبة يحجّ إليها العلماء . واسم (الرافعى) معروف فى تاريخ الفقه الاسلامى منذ قرون . . .

فالأستاذ مصطفى صادق الرافعى وإن كان قد ربى تربية مدنية كالتى ينشأ عليها أكثر أبناء هذا الجيل لم يزل بعضَ أهله ؛ وقد حمل عن آبائه الراية يقتحم بها فى سبيل الدين ، وينافح الشّرك ، ويدعو إلى الله . وما جهادُه فى ذلك - على تسلُّط أسباب الفتنة والزيغ فى هذا الزمان إلا حلقة من سلسلة جهاد طويل ، أفرغها آباؤه حلقةً حلقةً منذ انحدر أوّلهم من صلب الفاروق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . . .

***

الرافعى الشاعر

أفرأيت الرافعى وهذا منشؤه ونسبه يقنع بالقدر الضئيل من العلم الذى تلقّاه فى المدرسة ؛ ومن أين للرافعىّ أن يعرف هذه القناعة . . . ؟

فما هو إلا أن ترك المدرسة حتى انكبّ على كتب الدين والعربية يستبطن أسرارها وينبش عن دفائنها ؛ فحصّل ما حصل من علوم اللغة والدين ، وبلغ ما بلغ من أساليب البلاغة وأسرار العربية . وكان فى نفس الرافعى هوى قديم أن يكون شاعراً . . . فأخذ يقرض الشعر ، وأتمّ طبع الجزء الأول من ديوانه ولما يبلغ الثالثة والعشرين . . . وقدم بين يدى ديوانه مقدمة بليغة ، كانت وحدها البرهان على أن هذا الشاب النحيل الضاوى الجسد يعرف أين موضعه بين أدباء العربية فى غد . . . وما أحاول أن أتكلم عن الرافعى الشاعر الأديب فى ديوانه وعن مقدمة ديوانه بأبلغ مما قال عنه العلامة الشيخ إبراهيم اليازجى ، وهو يومئذ أديب العصر وأبلغ منشىء فى العالم العربى ؛ فقد كتب فى عدد يونيو سنة ١٩٠٣ من مجلة الضياء ، فى تقريظ الجزء الأول من ديوان الرافعى ما يأتى :

« وقد صدّره الناظم بمقدمة طويلة فى تعريف الشعر ، ذهب فيها مذهباً عزيزاً فى البلاغة ، وتبسط ما شاء فى وصف الشعر ، وتقسيمه ، وبيان مزيّته ، فى كلام تضمّن من فنون المجاز ، وضروب الخيال ، ما إذا تدبّرته وجدته هو الشعر بعينه . . .

ثم انتقد الأستاذ اليازجى بعض ألفاظ فى الديوان ، وعقب عليها بقوله :

« . . . على أن هذا لا ينزل من قدر الديوان وإن كان يُستجبُ أن يخلو منه ؛ لأن المرآة النقية لا تستر أدنى غبار ، ومن كملتْ محاسنه ظهر فى جنبها أقلُّ العيوب ؛ وما انتقدنا هذه المواضع إلا ضناً بمثل هذا النظم أن تتعلق به هذه الشوائب ، ورجاءَ أن يتنبّه إلى مثلها فى المنتظَر ، فان الناظم - كما بلغنا -

لم يتجاوز الثالثة والعشرين من سنيه ؛ ولا ريب أن من أدرك هذه المنزلة في مثل هذه السن ، سيكون من الافراد المجلّين في هذا العصر ، وممن سيُحلّون جيد البلاغة بقلائد النظم والنثر . . . »

الرافعي وحافظ

لم يكن الشيخ إبراهيم اليازجي وحده هو الذي تنبأ للرافعي الشاب بالمنزلة الرفيعة التي يتبوؤها اليوم ؛ فقد نال يومئذ أكبر قسط من عناية الأدباء في عصره ؛ وهذه أبيات لشاعر مصر الكبير المرحوم حافظ إبراهيم ، بعث بها إلى الرافعي في سنة ١٩٠٦ تدل بنفسها على مقدار احتفال أدباء العصر بهذا الناشئ الجبار: (١)

أراك وأنت نبْت اليوم تمشي ... بشِعرك فوق هام الأوّلينا
وأوتيتَ (النبوّة) في المعاني ... وما جاوزتَ حدَّ (الأربعينا)
فزن تاج الرياسة بعد (سامي)(٢) ... كما زانت فرائدُه الجبينا
وهذا الصولجان فكن حريصاً ... على مُلكِ القريض وكن أميناً
وحسبك أن مُطْريك (ابن هاني) (٣) ... وأنك قد غدوت له قرينا

نبوءة

لم يتناول الرافعي في الجزء الأول من ديوانه إلا ما يتناوله الشباب من فنون الشعر ، ولم يكن معروفاً له اتجاه أدبيّ إلى غير هذا اللون من شعر الشباب ؛ على أن نبوءة من وراء الغيب جاءت على لسان الأستاذ الامام (محمد عبده) ، في كتاب بعث به إلى الرافعي سنة ١٣٢١ هـ (١٩٠٣ م) تدعو إلى العجب والتأمل ؛ إذ ختم كتابه إلى الرافعي بهذه العبارة :

« . . . أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفاً يمحق به الباطل ؛ وأن يقيمك في الأواخر مقام حسّان في الأوائل . »

أفكان الشيخ محمد عبده يُلَقّى الغيب ، فيعلم من شأن الرافعي في غده مُقامَه في الدفاع عن الحق والذود عن لغة القرآن ؛ أم استجاب الله دعاءه للرافعي كما استجاب دعاءه لحافظ . . . (١)

وأشبهُ أن يكون نبوءة أخرى ما كتبه المرحوم الزعيم مصطفى كامل باشا من تقريظه ديوان الرافعي في جريدة اللواء :

« وسيأتي يومٌ إذا ذُكر فيه الرافعي قال الناس : هو الحكمة العالية مصوغة في أجمل قالب من البيان . . . »

ولما همّ الكاظمي الشاعر أن يسافر إلى الأندلس في سنة ١٩٠٥ كتب إلى الرافعي : « ثق أني أسافر مطمئناً وأنت بقيتي في مصر . . . »

(للحديث بقية) محمد سعيد العريان

(١) أتاحت لي صحبة الرافعي ثلاث سنين ، أن أقرأ أكثر رسائل الأدباء إليه بخط أصحابها ؛ فكل ما سيأتي ذكره منها في هذا المقال أثبته عن بينة

(٢) محمود سامي البارودي باشا ، المتوفى سنة ١٩٠٤

(٣) ابن هانئ : أبو نواس الشاعر العباسي المشهور ؛ ويعني به حافظ نفسه

(١) لما عرب حافظ كتاب (البؤساء) عن الفرنسية ، أهداه إلى الأستاذ الامام مع كلمة جاء فيها : « وقد عنيت بتعريبه لما بيني وبين أولئك البؤساء من صلة النسب . . . » فيقال إن الأستاذ الامام كتب إليه يمازحه : « لو كان البؤس هو الذي أعانك على تعريب هذا الكتاب ، فاني أدعو الله أن يزيدك بؤسا . . . ! » فكان حافظ — رحمه الله — يقول : « استجاب الله دعاء الامام ! » وقد عاش حافظ مدة حياته بائسا ومات بائساً

حافظ بك ابراهيم

بمناسبة ذكراه

بقلم السيد أحمد العجان

تتمة

— ١٢ —

نصائحه الى اليائسين :

١ — الهجرة خير للفقير :

إن ضيق العيش لا يرضى به إلا ذليل خطمه الذل ، وجبان أقعده الخوف ؛ والكسل والعجز والخمول آفة المصرى ، وكثير من الشرقيين ضربوا فى الأرض ، وركبوا البحار ، فأثروا

أليس خيراً للمعدم أن يجوس خلال البلاد ، يطلب سعة ويبتغى سعادة ؟ لقد سبقه فى الهجرة كثير من أبناء الشام ، ورجال الشرق :

ما عابهم أنهم فى الأرض قد نثروا
فالشهب منثورة مذ كانت الشهب
ولم يَضِرْهم سراء فى مناكبها
فكل حى له فى الكون مضطرب
رادوا المناهل فى الدنيا ولو وجدوا
إلى المجرة ركبا صاعداً ركبوا
أو قيل فى الشمس للراجين منتجع
مدوا لها سبباً فى الجو وانتدبوا

وقديماً غادر هو الوطن ، ونزح عن بلاده ، يطلب عيشاً ، ويروم رزقاً :

نزحت عن الديار أروم رزقى ... وأضرب فى المهامه والتخوم
ولولا سورة للمجد عندى ... قنعت بعيشتى قنع الظليم

وكان فى مقدوره أن يتقاعد لو كان يرتضى وجدان مواطنيه ، ولكنه يأبى أن يكون خاملاً :

فياليت لى وجدان قومى فأرتضى ... حياتى ، ولا أشقى بما أنا طالبه
ينامون تحت الضيم والأرض رحبة
لمن بات يأبى جانب الذل جانبه
يضيق على السورى رحب بلاده ... فيركب للأهوال ما هو راكبه
ويخرج بالرومى مذهب رزقه ... فتفرج فى عرض البلاد مذاهبه

وعجيب أن يقيم بيننا الغربى فيثرى ويخصب ، ونحن قعود عن منافسته وسبقه ومجاراته

سابق الغربى واسبق واعتصم ... بالمروءات ، وبالبأس اعتصاما
جانب الأطماع وانهج نهجه ... واجعل الرحمة والتقوى لزاما
وامتط العزم جوادا للعلا ... واجعل الحكمة للعزم زماما

ومع هذا الفقر الذى سال من أجله السراة والمترفين ، والذى من أجله حبب الهجرة ودعا إلى الارتحال ابتغاء الرزق ، ومع حاجته إلى الأنصار والأعوان يمدون له يد المساعدة ، ويقدمون له المطايا ، فانه جد حريص على كرامته ، يحتفظ بها ويرعاها

ولقد راق لديه ما فعل « فيكتور هيجو » بعد أن زج فى السجن ، وحشد فى زمرة السفاكين والمجرمين ، وأراد الولاة الغاصبون أن يمنوا عليه بالعفو ، فأبى واستكبر أن تسدى إليه العفو يد مذنب أثيم :

عاف فى منفاه أن يدنو به ... عفو ذاك القاهر المغتصب
بشروه بالتدانى ونسوا ... أنه ذاك العصامى الأبى
كتب المنفى سطراً للذى ... جاده بالعفو فاقرأ واعجب :
أبرئ عنه يعفو مذنب ؟ ... كيف تسدى العفو كف المذنب ؟

وكثير من العلماء النابهين ، والشعراء والكاتبين ، والأئمة والزعماء ، درجوا فى منابت الفقر ، وقاسوا محن العيش ، فطلبوا الجاه فى العلم ، والشرف فى الكرامة ، والهيبة فى الأباء ، وخلقوا لأنفسهم مجداً لا يقاس به عرض الدنيا : فلقد كان بشار بن برد الشاعر النابه من أولئكم الفقراء ، إذ كان أبوه طياناً يضرب اللبن ، وكان أبو العتاهية يبيع الفخار بالكوفة ، والجاحظ يبيع الخبز والسمك ، وأبو تمام يسقى ماء بالجرة فى جامع مصر ، كما كان أبو حنيفة بزازاً ، وكما هو مشاهد الآن فى زعامة الأمم الراقية أمثال روزفلت ، وهتلر ، وموسولينى

إن الظروف القاسية تحطم عظماء الرجال ولكنها لا تجرؤ أن تحطم التفاؤل عند المتفائلين ، وهؤلاء الذين يجالدون آلام الجوع والمسغبة ، وفى قلوبهم إيمان وفى ضمائرهم حياة ، ليس شيمتهم التفاؤل فقط ، ولكنه التفاؤل الرخيص

وكان حافظ رحمه الله أحد هؤلاء المتفائلين ، كما ينطق بذلك شعره صريحاً بيناً :

على أننى لا أركب اليأس مركباً ... ولا أكبر البأساء حين تغير
نفسى برغم الحادثات فتية ... عودى على رغم الكوارث مورق

فياقلب لاتجزع إذا عضك الأسى … فانك بعد اليوم لن تتألما

ولئن تتابعت عليه تارات الأحداث ، وطوارق الغير ، فان ذلك لا يثنيه عن عزمه ، ولا يقعده عن غايته ، ما دامت العلياء رائده ، وشرف الغاية مأربه :

مرحباً بالخطب يبلونى إذا … كانت العلياء فيه السببا
عقنى الدهر ولولا أننى … أوثر الحسنى ؛ عققت الأدبا

— ١٣ —

لقد مدح حافظ كل ذى جاه فى الدولة ، أو ذا تصريف فى أمور البلاد ، أو من أنس منه الخير يجلب والشر يتقى ، وهو طبيعى فى رجل كحافظ تجرد من القوة ، وأصفر من المال ، فركن إلى الولاة والحاكمين يتقى عواديهم ويأمن جورهم ، وقد يناله خيرهم ، ويدركه نفعهم

ولكنه فى مدحه الذى من أجله عرض ألفاظ اللغة ، « ونبش [1] بطون الكتب ، وقلب أحشاء القواميس ، ثم استخرج من الألفاظ أطلاها وأحلاها ، ومن المعانى أسماها وأعلاها ، وصاغ من كليهما مدحة تهز الممدوح وتطربه ، » لم يخالف ضميره ولم يتجر بوطنيته ، ولم يرق ماء وجهه ، ويمتهن كرامته . بل كان يقف عند دهاء السياسة وحزم الرجولة ، ولين الجانب حيث لا مغمز ولا تجريح

مدح الخليفة وسلاطين الدولة العثمانية ، وخديو مصر وأمراءها ، ورجال مصر وسراتها ، بل مدح اللورد كرومر وملك الانجليز ومندوب الانجليز . ولكن ما كان يمدحهم تملقاً ورياء ، بل كان أشبه بالتشبيب يقدمه الشاعر لتصغى الأسماع اليه وتتعلق القلوب بما بعده ، ثم يتناول مطالب الشعب يقدمها ، وشكايات الوطن يلفت الأنظار اليها ، وقد ينتقد فى السياسة ، ويتهكم بمسلك الحاكمين ، كما حدث فى قصيدته التى رفعها إلى عميد الدولة البريطانية بعد حادثة دنشواى

قصر الدبارة هل أتاك حديثنا … فالشرق ريع له وضج المغرب
أهلا بساكنك الكريم ومرحباً … بعد التحية إننى أتعتب
ماذا أقول وأنت أصدق ناقل … عنا ولكن السياسة تكذب
أنقمت منا أن نحس ؟ وإنما … هذا الذى تدعو اليه وتندب
أنت الذى يعزى اليه صلاحنا … فيما تقرره لديك وتكتب
أو كلما باح الحزين بأنة … أمست إلى معنى التعصب تنسب ؟

فاجعل شعارك رحمة ومودة … إن القلوب مع المودة تكسب

لقد طبع حافظ مدحه بطابع المصلحة للمجتمع ، والنفع للوطن ، والتعبير عن أحاسيسه وآلامه ، والذود عن شرفه وكرامته . وكان هذا المدح يتقدم به فى قصائده كالتشبيب عند السابقين كما فى قصيدته التى رفعها لسمو الأمير عباس الثانى فى عيد رأس السنة الهجرية

قصرت عليك العمر وهو قصير … وغالبت فيك الشوق وهو قدير
وأنشأت فى صدرى لحسنك دولة … لها الحب جند والولاء سفير
فؤادى لها عرش وأنت مليكه … ودونك من تلك الضلوع ستور
وماانتفضت يوماً عليك جوانحى … ولا حل فى قلبى سواك أمير

ثم انتقل — بعد أن عرض للهوى والصبابة والغرام — إلى آمال الوطن ومطالبه :

أمولاى إن الشرق قد لاح نجمه … وآن له بعد الممات نشور
مضى زمن والغرب يسطو بحوله … على ومالى فى الأنام ظهير
إلى أن أتاح الله للصفر نهضة … فقلت غرار الخطب وهو طرير
جرت أمة اليابان شوطاً إلى العلا … ومصر على آثارها ستسير
وما يمنع المصرى إدراك شأوها … وأنت لطلاب العلاء نصير
فقف موقف الفاروق وانظر لأمة … اليك بحبات القلوب تشير

— ١٤ —

فى مصر فقراء وأيتام وذوو خصاصة ، ولهم حقوق على المجتمع الذى يعيشون فيه ويعملون له

١ — لهم حق التعليم حتى يرتفع مستواهم ، وتعلو منازلهم وحتى يتضامنوا مع المجتمع فى بناء مجده بوحى من الضمير ووازع من النفس ، لا بطريق السخرة والأجبار ، وحتى تكون العلاقة بين أفراده وهيئاته بعضهم مع بعض علاقة محبة وإخلاص وولاء ، لا علاقة سيادة وغطرسة وكبرياء

٢ — ولهم حق تيسير سبل الرزق ؛ بفتح أبواب العمل أمامهم ، والسهر على صوالحهم ، ورعاية شؤونهم ؛ حتى يعيشوا وأسراتهم فى مأمن من الجوع والخصاصة ، وحتى لا يشغلوا المجتمع بسرقاتهم وسطوهم

٣ — ولهم حق المعالجة فى بيوت الشفاء والمصحات ، حتى تسلم جسومهم من العلل ، وتصح أبدانهم من الأسقام . فنحن فى ميدان نهضة ، وكل نهضة لابد لها من عدة ، فلتكن عدتنا رجالاً أشداء البنية أصحاء الأجساد ، سليمى العقل نابهين حازمين ، كى

(١) حافظ : ليالى سطيح

يكون منهم الجندى الباسل ، والزارع النشيط ، والصانع الحاذق ، والوطني الغيور ، إلى آخر ما يتطلبه الوطن ليسلم ، وتستدعيه النهضة لتدوم .

٤ — على أن منهم العاجز الضعيف ، واليتامى الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، كل أولئك فى حاجة إلى ملاجىء يأوون اليها ، ومدارس يتعلمون بها ما ينفع الجماعة ويدر عليهم الخير

٥ — ثم من فوق ذلك ، ومن قبل كل ذلك ، لهم حق قد يعلو على كل الحقوق فى جلال شأنه وخطره ، ذلك هو أن يشعروا بعطف ذوى الجاه وأرباب النفوذ وأولياء الأمور ، حتى يشربوا فى قلوبهم حبهم ، ويولوهم الطاعة التى تحقق لهم رغباتهم

هذه حقوق الشعب المسكين كما راها حافظ ، فهو يرقب فرصة اعتلاء سعد منصة الحكم فيتقدم اليه يقول :

يا سعد إن بمصر أيـ تاماً تؤمل فيك سعدا
قد قام بينهم وبين العلـ م ضيق الحال سدا
ما زلت أرجو أن أرا ك أبا ، وأن ألقاك جداً
حتى غدوت أبا له أضحت عيال القطر وُلدا
فاردد لنا عهد الأمام وكن بنا الرجل المفدى

عليكم حقوق للبلاد أجلها تعهد روض العلم فالروض مقفر
قصارى منى أوطانكم أن ترى لكم يداً تبتني مجداً ورأساً يفكر

فتعلموا فالعلم مفتاح العلا لم يبق باباً للسعادة مغلقاً

وقصيدته فى سبيل « الجامعة » تبين رأيه فى التعليم ، وأنه لا يقنع بالأوليات السطحية ، بل بالثقافة الرشيدة والدراسة الحكيمة ، وأن ألف كُتّاب لا تعدل مدرسة عالية أو جامعة منظمة ؛ لأننا نستبدل بالكتاتيب داء الجهل بداء أشد خطراً وهو الغرور

ذرّ الكتاتيب منشيها بلا عدد ذر الرماد بعين الحاذق الأرب
فأنشأوا ألف كتاب وقد علموا أن المصابيح لا تغني عن الشهب
هبوا الأجير أو الحراث قد بلغا حد القراءة فى صحف وفى كتب
من المداوى إذا ما علة عرضت؟ من المدافع عن عرض وعن نشب
ومن يروض مياه النيل إن جنحت وأنذرت مصر بالويلات والحرب ؟
ومن يوكل بالقسطاس بينكم حتى يرى الحق ذا حول وذا غلب؟
ومن يميط ستار الجهل إن طمست معالم القصد بين الشك والريب؟
فما لكم أيها الأقوام جامعة إلا بجامعة موصولة السبب

والحق أن حافظاً صورة من النفسية المصرية العامة فى هذه الفترة ، فترة الانتقال والحيرة والاصطدام فى جميع النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فهو على ذلك قد أدى رسالته فى الحياة ، وقام بواجبه نحو وطنه وشعبه ، لأنه بصر بآلامه ، وتغنى بالأمل المنشود ، والمصلحة المرجوة ، ووقع على قيثارة الحنان أناشيد الأسى وأنات البائسين ، فجزاه الله كفاء وفائه الجنة وحسن المقام وخلود الذكر

السيد أحمد الغمان

سود قمصانكم حمر غداً

للأستاذ فخرى أبو السعود

أمةَ الأحباش يا أُسْدَ الحمى ... علّمى الطليان عُقْبى من بغى
أنتِ لقّنتِهمُ فى عَدْوَةٍ ... غاليَ الدرس، وطُوبى من وعى
فَنَسوهُ، فأعيديه عسى ... يحفظون الدرس رنّانَ الصدى
ويُميط القومُ عن أعينهم ... غرَراً بات شبيهاً بالعمى
ويُقِلّون دعاوى لهمُ ... ملأوا من إفكها الأرضَ سُدى
مثّلوا الذئبَ ولكن لم يروا ... حَمَلاً يرهب ذؤبانَ الفلا
هُمْ أرادوا أن يُحاكوا دولةً ... مُلْكُها يجمع أطرافَ الدُّنى (١)
أمةٌ قامت تُحاكى حُرّةً ... ساخراً من جهلها هذا الورى
مِنْ سُويسْرا الشَّرْقِ رَجّوا جَنّةً ... لهمُ طابت مَعيناً وجَنى
طَمِعوا فيها ولكن دونها ... مربضُ الأساد مِنْ ذاك الشّرى
حشدوا حولكِ من قمصانهم ... جحفلاً طبّق أجواز الفضا
وأثاروا مُرعِداتٍ فوقهم ... حائماتٍ حجبتْ أُفْقَ السما
وأعدّوا من جحيم العلم ما ... يفلق الهام وما يبرى الصَّفا
طالما بدّدتِ خصماً عادياً ... فى عصور الجهل قِدماً والدُّجى
فانظُرِى اليومَ عدوًّا باغياً ... صالَ بالعلم وفى النُّور سطا
جَرّدَ السُّمْرَ مِنَ الفضلِ وقد ... قصّرَ الفضلُ عليه والحجى
أُمّةَ الأحباش فانضِى عزمةً ... ما تلقّتْ جحفلاً إلا انثنى
وإذا جاءوا فقولى لهمُ ... قولةً فيها رشادٌ وهُدى :
« نحن خضّبنا بكم فى عَدْوَةٍ ... جانبَ السهل وأفوادَ الرُّبى
فاجمعوا أشلاءكم مِنْ تُربِها ... قبل أن تخطُوا إلى هذا الحمى
نحن إنْ لم نقرأ العلمَ ولم ... نحذقِ الفنَّ ولا نحتَ الدُّمى
نمنعُ الحوضَ ونَفْنى دونه ... ونعاف العيش فى ظل العدى
يا عبيدَ الأمس إنّا لم ندِنْ ... أبدَ الدهر لجبّارٍ عتا (٢)
ما روى التاريخُ عنّا أبداً ... غيرَ عزٍّ باذخٍ فيما نوى
لم نُغِرْ يوماً على جارٍ لنا ... غير أنّا كمْ رددنا من طغى
فإذا ساءكمُ فى أرضنا ... - يا بنى الصُّفرِ - رقيقٌ يشترى
فغداً نقْرِنُ منكم بهمُ ... كلَّ مفتونٍ على الغاب اجترا !
تدّعُونَ الفضل ظلماً والعلا ، ... والعلا منكم براءٌ والنّدى
لكُمُ فى الغدر ماضٍ مظلمٌ ... فى طرابُلْسَ من الفضل خلا
كم غدرتم وفررتم هلعاً ... ما صبرتم مرّةً فى الملتقى
عُمَرُ المختارُ قد جلّلكمْ ... يومُه عاراً على طول المدى
فالبسوا العار عليكم سرمداً ... وانزلوا حيث نزلتم بالظُّبى
ما لكم غير ظُباتنا من قِرى ... عبثاً منّيتُمُ النفس المنى
سودُ قمصانكم حمرٌ غداً ... من نجيعٍ مِن لُهاكم قد جرى ! »
وتحايا - أمةَ الأحباش - من ... كلِّ حُرٍّ ودّ لو كان الفِدا
لو درى الحربَ لَلبّى ومضى ... فى صفوف الحق لا يخشى الرّدى
إذْ تنحّى كلُّ شعبٍ طالما ... شاد بالسلم وبالحق شدا
ملأَ الدنيا كلاماً فإذا ... قيل : مَن للسلم والحق ؟ انزوى
أممُ الغرب وما أدراك ما ... أمم الغرب وما رهط العلا
ذلّ من يطلبُ نَصْفاً فيهمُ ... إنما يُطلَبُ فى ساح الوغى

فخرى أبو السعود

(١) يحاول الطليان التشبه بالامبراطورية البريطانية
(٢) حافظت الحبشة دائماً على استقلالها ولم تستقل إيطاليا إلا حديثاً

النسيان

للدكتور ابراهيم ناجى

وحبيبٍ كانَ دنيا أملي ... حبُّه المحرابُ والكعبةُ بيتُهْ
منْ مشى يوماً على الوَرْدِ له ... فطريقى كانَ شوكاً ومشيتُهْ
من سقى يوماً بماءٍ ظامئاً ... فأنا مِنْ قدحِ العُمْر سقيتُهْ
خفقَ القلبُ له مُختلجاً ... خفقةَ المصباحِ إذ ينضبُ زيتُهْ
قدْ سلانى فتنكّرْتُ له ... وطوى صفحةَ حُبّى فطويتُهْ

ابراهيم ناجى

الطبيعة

بقلم رفيق فاخوري

تحنو على عهودها النفسُ ولا   تستطيع أن تصبر عن لقائها
كأنما حلّ بجسمي روحها   وفي عروقي سابَ من دمائها

***

بكرٌ لها منها حُلَى دانيةٌ   لكل جسٍّ بينهنّ مسلكُ
لي من مرائيها شخوصٌ أجتلي   مَجْيايَ في وصالها وأُدركُ

***

مطبوعةٌ طبعَ الحياة العاريهْ   غبطتُها وحزنها علانيهْ
تستقبلُ الأجيالَ في ثوبٍ إذا   أبلته عادت فارتدته ثانيه

***

قديمةٌ ، آذارُ يُحْيِيها ، ولا   يمحو بِلَى الخريفِ من جلالها
يمشي عليه الدهرُ وهي عنه في   شُغُلٍ فلا تُلْقي إليه بالها

***

لها البقاء حين نغدو رِمَماً   مَنْسِيَّةً لا تهتدي لها الذِكَرْ
ياليت لي عيناً كمرآة الضُّحَى   تَرعَى مَجاليها إذا غابَ النظر

***

أُحِبُّ بها خرساءَ حُمّتْ شمسُها   فألهبتْ أنفاسَ كلِ ذي حَرَكْ
وهيمنَ الصمتُ على أرجائها   كأنْ بمَنْعَى الكونِ قد دار الفلكْ

***

واستحوذتْ على الورى إغماءةٌ   ثقيلةٌ ، سلطانُها لا يُدْفَعُ
وعَرَتِ الأطيارَ سكتةٌ فما   يَنْغَمُ في سُباته مرجِّعُ

***

والنهرُ لهبانُ وللماء به   مَسَارِبٌ يَسْبَحُ فيها الخاطرُ
والسهلُ في غيبوبةٍ مستغرقٌ   مَيْتٌ وفيه تلتقي العناصر !

***

أحببْ بها كَسْلَى تولّى جسمَها   بعد افترارٍ ومِراحٍ خَدَرُ
واحتبسَ النسيمُ محروراً فما   يَشيعُ في الفضاء عنها خَبَرُ

***

أُغرِقُ في صحرائها كآبةً   تَنْسِجُ في قلبي غماماً أسودا
وأشتهي لُقْيانَها سُوَيْعَةً   أنْسَى بها نفسي ولا أرعَى غدا

حمص   رفيق فاخوري

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

١٥ – تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

فرديريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوي

يؤمن نيتشه بأن حياة الانسان هي نضال دائم لكل وهم ولكل خطأ . وينظر إلى الوجود بعيني متشائم ؛ فتبدو الطبيعة له صورة تبعث الخوف ، والتاريخ وحشياً خالياً من المعاني ؛ ينفر ممن يؤمن بأن كل شيء هو للأحسن ! ولا يعتقد بأن في وسع الحياة أن تهب لنا لحظة فرح حقيقي . وإذا كانت هذه وهي الحقيقة فواجب الانسان السامي أن يحارب بدون هدنة ولا هوادة كل ما هو سيء ، وأن يهدم كل القيم الخاطئة والتعاليم الفاسدة ، وألا يرحم أي مظهر من مظاهر الضعف والرياء والجبن في هذه الحضارة . (إنني أحلم برجال كاملين ، مطلقي الارادة ، لا يدارون ولا يراءون . يدعون أنفسهم الهدامين . يخضعون كل شيء لنقدهم ويضحون بأنفسهم في سبيل الحقيقة . ألا ينبغي لكل سيء ولكل كاذب أن يظهر تحت وضح النهار ؟ نحن لا نريد أن نبني قبل الساعة الموقوتة ، ونحن لا ندري إذا كان بامكاننا أن نبني ، أو إذا كان الأحسن لنا ألا نبني أبداً . هنالك متشاءمون كسالى خاضعون مستسلمون ؛ إننا لا نكون من هؤلاء . إن المثل الأعلى الذي نتبعه ونترسمه هو الانسان الذي قال عنه شوبنهاور ، من يعتقد بأن السعادة الحقيقية هي غير ممكنة ، ومن يبغض ويمقت الوجود المادي الذي تتكامل فيه الانسانية المنحطة ، ومن يسحق كل ما ينبغي سحقه ولا يشعر بألم يحز في نفسه ، أو ينتشر حوله ؛ ويمشي بارادة جبارة لا يلويه عن عزمه شيء ، وكل إرادته أن يكون مع الحق والصدق في كل شأن من شؤونه .)

يصل شوبنهاور بانسانه إلى سلب الحياة منه والفناء المطلق ؛ أما نيتشه فانه يقدس (كاليوناني الديونوزوسي) هذه الارادة التي تريد الحياة الخالدة وتعمل على تخليدها بأية الوسائل . فهو متشائم ، لكن تشاؤمه لا يدفعه إلى الاستسلام ، ولكن إلى البطولة المناضلة . فهو يرى الزهد علامة من علامات الانحطاط والذل . لأن التشاؤم – عنده – فكرة مستحيل تحقيقها ، لا يقبل

بها واقع ولا يثبتها منطق ، ولن يكون الفناء غاية الوجود ، وهكذا راح نيتشه يمجد الحياة وآلاءها بدلاً من أن يبشر بالفناء وبغض الحياة كمله ؛ يقدس مايقوى فى الانسان إرادته ، ويضاعف عزيمته للوصول إلى الهدف الأسمى

ونيتشه فى هذا شأنه شأن اليونان فى مآسيهم ، يفخر بذاته ، ويطول بسموه ، ويعجب بالحضارة اليونانية لأنها انشأت جماعة من الرجال السامين ، وهل غاية الحياة إلا مثل هـذا التوليد ؟ والانسانية عنده تركض وتتألم وتتمخض لتلد هذا العدد الضئيل من هؤلاء الرجال السامين . « وإنما على الانسانيـة أن تعمل لتحمل إلى الأرض رجال عبقرية ، هذه غايتها ، ليس لها من بعدها غاية ! وإن علينا أن نوحى اليها أن تعجل بتوليد الفيلسوف والفنان فينا وفى غيرنا . وأن نسمى إلى إكمال معنى الطبيعة ؛ وأن على الانسان أن يحس بنفسه أنه صنع غير كامل من صنع يدها . ولـكننا نوقظ فيه — برغم نقصه — هذه العبقرية الفنية حتى يساعد الطبيعة على إكمال ماجاء ناقصاً منها ، وبهذا يكمل الانسان الفنان صنع الطبيعة . وبهذا تغدو معرفة الانسان نفسه وشعوره بصغرها هى أساس نهضته . . .

« ألا إننى أرى فوق شيئاً يتألق ؛ هو أسمى منى ، فيه من معنى الانسان أكثر مما فىّ ! فساعدنى على الوصول إلى هذا المثل ؛ كما أننى سأعمل على مساعدة من يفكر مثلى ويتألم مثلى . . . كل ذلك لنمهد الطريق أمام ذلك الانسان المقبل ، الشاعر بكماله ومعرفته الواسعة ، ومحبته العميقة التى لا تحد ، وقدرته المولدة وتأمله البعيد : هذا الانسان الذى سيحيا فى الأرض حاكماً ، بيده مقياس كل شىء » فلا يجب والحالة هذه أن تترك للمصادفات عمل هذا الانسان ، وإنما ينبغى للناس أن يجهدوا ويعملوا بالانتخاب على خلق هذه الذرية ـ ذرية الأبطال ـ على أن هذا المذهب قد يترك جحفلاً من العبيد الذين شأنهم أن ينفذوا ارادة الأبطال . والعبودية ـ عند نيتشه ـ لازمة لتحقيق مثل هؤلاء الأبطال . إذ ليست غاية العلم والبراعة أن تخفف من نصب هؤلاء التعبين . فعمال اليوم ليسوا بأكثر سعادة من عبيد الأمس . هؤلاء كانوا يخضعون لشرفاء ذوى غطرسة وخيلاء . وأولئك دائبون على خلق نخبة سامية من رجال العبقرية ، فالبطل ليس دأبه بأن يحقد على المظلومين والمتخلفين فحسب ، بل مما ينبغى له أن يقتل عامل الشفقة فى صـدره إذا هب لأنه عامل خطر . إذا ظفر عمل على قتل البراعة فى سبيل السعادة المادية للانسانية . وهو ـ هنالك ـ لا بد مصطدم بالشريعة الغالبة التى تسيطر على الوجود . وكل من ود أن يحيا ، أو حكم عليه بأن يحيا فى وجود مشحون بالألم والفناء أفينبغى له أن تشتمل نفسه على هذه المضادة المؤلمة التى تعبر عن كنه الحيـاة ، وسر كل تطور واستحالة . . . « كل لحظة تفترس الثانية . وكل ولادة هى موت كائنات لا عـداد لها . الولادة والحياة والموت كنه ذو جوهر واحد . وهكذا نستطيع أن نشبه البراعة المنتصرة بالبطل الظافر الذى يسيل دمه من جراحه ، ولـكنه يجر خلفه قطيعاً من المغلوبين والعبيد المقيدين بعجلته »

ينبغى لنا إذا أردنا الحقيقة أن نضرب بكل وهم باعثُ على التفاؤل عرض الحائط . فالرجل الغربى الذى يظن ببساطة نفسه أن العلم يبعث على السعادة ، ويرى أن سـعادة الجميع هى غاية الحضارة القصوى ؛ هذا الرجل يجرب أن ينكر تعس « العبيد » هذا التعس اللازم للمجتمع البشرى . وهو يموه عليهم بقداسة العمل ، زاعماً أن الآكل بعرق جبينه هو أشرف الناس . فيا له من مذهب حقير أصبح لا يخدع أحداً ! ولماذا لا نعترف بأن العبودية هى حقار وصغار ، ولـكننا نستطيع أن نخفف وقعها ونجعلها أقل شقاء ، ونحتم على أصحابها القبول بها . . . فما ظل المجتمع الانسانى على هذا الوضع فان فيه الأقوياء الذين يرفعون عظمتهم على طائفة من المستضعفين فى الأرض !

***

كال المدفع بدوى فى جوف أوربا ، ونيتشة معتزل فى أحد وديان « الالپ » يعالج درس الروح اليونانية وفهم وحياتهم . ولما استقر السلام أعلن أن عصر الأحزاب قد شارف النهاية . وأن زوحاً حرة يجب أن تنهض وتعرف كيف تتعالى فوق هذه الحدود ! « إن الشرق والغرب مفصولان بشحطة يرسمها قلم لأعيننا ، هذه الشحطة هى التى تثير خوفنا . تقول النفس الفتية (أنا أجرب بأن أكون حرة !) وحق لها أن تثور ، لأنهـا ترى أن شعبين قد يهرقان دماءهما لأن بحراً يفصل بينهما ، أو لأن ديانتين مختلفتين عندهما لم تكونا قبل ألفى عام » وهكذا نرى نيتشه بكل ما أوتى من تفكير وقوة يريد أن يزعزع تقاليد عصره ، ويشعر بنفسه بأنه لم يخلق لحاضره وإنما خُلق للأجيال القادمة

(يتبع) خليل هنداوي

القصص

من أساطير الإغريق

أدونيس

للأستاذ دريني خشبة

كان جميلاً كالكأس المترعة . وجه أبيض كالحَبَب ، ثم تتدفَّق الخمر فى دمه ، وتكمن فى عينيه ، وتنثال على لسانه

رأته ڤينوس يستحم فى بحيرة مزهرة ، فوقفت تنظر إلى هذا التمثال من بلُّور ، يسبح فى لُجة من لُجَيْن !

ولمحها الغلام فخجل واستحيا ، وطفق يخصف عليه من أوراق اللوتس . . . . ولكن الحياء ورَّد وجنتيه ، وصبغ خديه ، وفترَّ ناظريه ، وتصبَّب فى شفتيه فاحمرّتا ! وبذلك أصبح فتنة تملأ البحيرة ، وعجباً يشيع فى الماء

وسبح إلى الشاطئ المقابل ؛ بيد أن ڤينوس كانت عنده قبل أن يبلغه هو ، فانثنى يريد الشاطئ الآخر ، فكانت ڤينوس عنده كذلك ؛ فارتد يحسب أنه يسبقها إلى الشاطئ المقابل كرة أخرى ، ولكن الآلهة المنيدة كانت تسابق الوهم فى الوصول إلى أحد الشاطئين ؛ فلما نال الجهد من أدونيس لم ير بدًّا من البروز إلى البر ، وليكن من أمر هذه الغادة التى تهاجمه بحبها وهو لا يعرف من هى - ما يكون !

- « أدونيس . . . . أليس كذلك ؟ »

- « ؟ . . . . . »

- « ألا تتكلم ؟ . . . »

وكانت قطرات الماء البلورية تنحدر على جسمه الرشيق ، فمن يدرى ؟ أهى من ماء البحيرة أم من ماء الخجل ! . . .

- « تكلم يا أدونيس ! ألا تعرف من أنا ؟ . . . »

- « ؟ ؟ . . . . »

- « أنا التى سجد عند إخمصيها مارس الجبار ! لقد ألقى سلاحه لدى النظرة الأولى التى زلزلت بها أركان قلبه ! ألا تصدق ؟ أدونيس ؟ ! . . . »

- « أرجوك . . . إن رفاقى ينتظروننى ، ونحن جميعاً نتخذ أهبتنا للصيد . . . »

- « صيد ؟ . . . . وماذا تصيدون فى هذه البرّية الموحشة ؟ . . . »

- « الخنازير يا غادة . . . إنها متوحشة جداً . . . »

- « وهى خطرة أيضاً ، وكل يوم لها ضحايا . . . أدونيس ! ألست ترى إلى جمالك الفينان ! ألا تشفق عليه أن يصيبه سفعٌ من شمس هذه البرية المحرقة ؟ ألا تقلع عن صيد الخنازير القتالة ؟ . . . تكلم ! لا تصمت هكذا ؟ »

- « أرجوك ؟ »

- « ترجونى ؟ أنا التى أرجوك يا حبيبى ! »

- « . . . . ؟ ؟ . . . . »

- « أراك ارتبكت إذ دعوتك حبيبى ؟ وَىْ ! ما للحياء يصبغك بأرجوانه هكذا يا أدونيس ؟ تعال . . . هات قُبلة ! »

- « لا . . . لن يكون شىء من هذا ! اسمعى ! ها هى ذى سلوقياتى تنبح ولا بد أن أسرع إليها . . . دعينى . . . دعينى ! »

- « لن أدعك ، ولو استجمعت شبابك كله وريعانك ما استطعت أن تفلت من ذراعىّ يا حبيبى ! . . . . هات قبلة قلت لك ! . . . . »

- « . . . . ؟ ؟ . . . . »

- « إذن أنال بالقوة كل ما أشتهى ! سأحرق شفتيك الباردتين بشفتىّ المشتعلتين ! »

ـ « أ ... ر ... جوك ... أوه ... حسـ ... بك ... »

ـ « فمك جميل شهى ، ولـكن خديك جميلان كذلك ... ألف قبلة على خديك وعارضيك أيها الغلام الفتان ! ... »

ـ « ...... ؟ ؟ ...... »

ـ « أنفاسك تتضوّع من فمك الرقيق ، وأنفك الدقيق ؛ فهل فيك حديقة من بنفسج ؟ ... »

ـ « أر ... جوك ... كفى ... كفى ... سلوقياتى تنبح ، ولابد أن أذهب ! ... »

ـ « تذهب ؟ ولمن تترك هذا الصدر الدافئ الذى يضمك ؟ حقاً أنت غرير ! ... »

ـ « أرجوك ... قلت لك ! ... »

ـ « كل هذه القبـل أغمر بطوفانها فمك ، ولا تحيّيها بقبلة ؟ ... قبّلْني ! ... »

ـ « لا ... لا أقدر ... ارسلى ذراعيك عن عنقى ... »

ـ « أنت لا تقدر ؟ آه ياساذج ؟ إننى لن أفلتك ما دمت تتباله علىّ ! ... »

ـ « أرجوك ، دعينى أذهب ! أوه ... »

ـ « قبّلني قلت لك ! لن يقهر كبريائى فتى غرير مثلك ! إذا قبلتنى أرسلتك ! ... »

ـ « أقبلك ؟ »

ـ « أجل ، قبلني يا أدونيس ! »

ـ « أقبلك كيف ؟ »

ـ « هكذا يا صغيرى ...... »

ـ « ... ؟ ... ؟ ... دعيني إذن ! »

***

وانتشت ربة الجمال بقبلة أدونيس اليافع ، فارتجفت ارتجافةً هائلة ، وخرّت إلى الأرض كأنما أغشى عليها ؛ وارتبك الفتى الذى لم يألف مثل هذا الموقف النادر من مواقف الحب ، فأنف أن يغادر المكان قبل أن يعالج الغادة حتى تصحو ، ثم يذهب إلى صيده بعد . ولـكنه لم يدر ماذا يفعل ؛ وعلى كل فقد طفق يدلك قدميها ، ويربت على صـدرها ، ويمر بيديه الناعمتين على خديها وجبينها ، فلما لم تـفق ، أهوى على فمها الحلو يلثمه ... ورد إليه ديْنه من القبل !

وكانت ڤينوس الخبيثة تحس وتصمت ... ولا تأتى بحركة قد تطير بهذه الأحلام السعيدة التى تطيف بها ، وتتنزل من السماء الصافية عليها ، ألم تـكن تضرع اليـه من أجل قبلة واحدة ؟ فـكيف بها تطرد هذه العشرات والعشرات من القُبل ؟ !

ولم تطق ڤينوس ...

فڤينوس ربة ولـكنها هلوك ! لقد طوقت أدونيس بذراعيها ، ثم أمطرت فمه الخمرىّ ، ووجهه المطرىّ ، آلافاً من القبـل العِـذاب ، والنولات الرطاب (١)

حدثته عن الحب بلسان ينفث السحر ، وعينين تتقـدان اشتهاء ، ولـكنه كان يصم أذنيه ويُغلّق أبواب قلبه . وضمته بحرارة وعنفوان إلى ثدييها ، فما زادته إلا شموساً وعناداً ...

قالت له : « ألا تُـقبل علىّ إلا ميتة يا أدونيس ؟ أيسرك أن أقضى نحبى إذن ؟ ألست أعدل عندك خنزيراً برياً ؟ أكلما خلعت عليك شبابى ونضرتى وحبى ألقيت بها فى تراب كبريائك غير آبه لدموعى وتوسلاتى ؟ افتح قلبك للحب ياصغيرى !!... »

ولـكن أدونيس يعبس عبوسة محنقة ويقول لها : « أهذا كله عندك هو الحب ؟ .. »

فتنظر فى عينيه الساخرتين نظرة تستشف بها ما فى قرارة نفسه وتسأله : « إذن ماهو يا أدونيس ؟ »

وينفجر الفتى بالحقيقة المرة فيقول لها : « إن كنت تجهلين ماهو ، فالحب أجل من هذا وأقدس ياغادة ...... إنك قد أسلمت جسمك للشهوة تصهره ، وروحك للغلمة تحرقها وتذهب بها شعاعاً ... دعيني أذهب إذن ... دعيني ... سلوقياتى تنبح

---

(١) لانستطيع متابعة الموقف ، ولـكننا نثبت هنا أسطراً من شكسبير الذى لم نعرف فيه تفحشا ، فى وصف ما كان بينهما — وذلك من قصته الخالدة Venus and Adonais (مجموعة وارد ولوك ص ١٥٢٤)

And on his neck her yoking arms she throws:
She sinketh down, still hanging by his neck,
He on her belly falls, she on her back.
Now is she in rhe very lists of love,
Her champion mounted for the hot encounter:
All is imaginary she doth prove,
He will not manage her, altheugh he mount her.. erc...

والقصة رائعة ، وبها أكثر من ثلثمائة بيت فى وصف القبل وحدها ، ومن لم يقرأها لم يعرف شكسبير القصاص

ولا بد أن أذهب اليها . . . . »

* * *

وكأن ثلجاً ذاب فى أعصاب ڤينوس عند ما سمعت أدونيس ينتهرها ويعيرها ، فتقلَّص ذراعاها ، وفترت نفسها ، وخمدت فى قلبها تلك الشهوة الملحة التى سلطت عليها تعذبها وتضنيها ... واستطاع الفتى بجهد بسيط أن يتخلص من أسرها ، فانطلق يعدو كالظليم إلى سلوقياته التى كانت تناوش خنزيراً كبيراً بادى النواجذ بارز الأنياب .

وجلست ڤينوس تنظر إلى أدونيس يعدو ، وتجتر كلماته وتتعذب . . .

وغفت إغفاءة قصيرة ، ولكنها استيقظت فجأة على صرخة راجفة من جهة الشرق ، حيث كان فتاها الحبيب يتلهى بالصيد ، فهبت مُروَّعة ، لأن الصوت كان بصوت أدونيس أشبه ، وانطلقت تعدو حتى كانت عنده . . .

ياالهول ! !

أدونيس مضرج بدمه ، وعيناه مستسلمتان للموت (١) ، وسلوقياته تبكى حوله ؟ ! لقد انقض عليه الخنزير الضارى فمزّق لحم الفخذة ، وسرى فى الدم سم الكَلَب !

ووقفت ڤينوس ذاهلةً تنظر إلى حبيبها الصغير ، ثم أهوت على فمه تقبله وترشفه وتبكى . . . ثم أسندت الرأس الذابل إلى صدرها ، وجعلت تقول :

« ألم يكن حباً حبي يا أدونيس ؟! ياللقضاء ؟! كنت أعرف هذه النهاية ، وكنت أشفق عليك منها ، ولذا كنت أتشبث بك ، وأحاول أن أنسيك بقبلى ودموعى خنازير هذه البرية ، ولكنك قلت إن حبي شهوة ، وصبابتى غلمة ، فجنيت على نفسك وعلىَّ ! ! أوه ! يالبرودة الموت ؟ أدونيس ؟ أدونيس ؟ رُدَّ علىَّ ياحبيبي ! لقد حسبتنى غادة ! أنا ڤينوس أكلمك فردَّ على . . . آه . . . »

وألقت به على الكلأ السندسى (٢) ، وانطلقت تبكى وتنتحب ، حتى كانت عند عرش الأولمب فقالت تكلم رب الأرباب زيوس المظيم :

ـ « أدونيس يا أبى ! ! »

ـ « ماله ؟ . . . »

ـ « قضى . . . قتله الخنزير . . . »

ـ « ومالك مذعورة هكذا ؟ . . . »

ـ « مذعورة ؟ ! وحقك إن لم تأمر برده إلى الحياة الدنيا لأذهبن معه إلى هيدز ! ! »

فوقف إلـه كان يجلس قريباً من السدة وقال : « تذهبين إلى هيـدز ؟ ! يالهول ! والجمال والحب ؟ أيذهبان فى إثرك إلى دار الموتى ؟ وهذه الدنيا يا ڤينوس ؟ »

ـ « هذه الدنيا تنعى من بناها ... تخرب ... لا زهر ... لا شفق ... لا طير ... لا موسيقى ... لا خمر ... لا حب ... لا حنين ... لا غزل ... لن تكون دنيا كم شيئاً إذا ذهبت إلى هيدز مع حبيبي أدونيس ! ! »

فسجد الإلـه الذى تكلم أمام زيوس ، ثم نهض وقال له :

ـ « أنا بلسان الآلهة أضرع إلى مولاى أن يلبى طلبة ڤينوس ربة الحب . . .

فتبسم إلـه خبيث كان قريباً منه ، وغمز إليه وقال :

ـ « وربة الجمال يا ابن العم ! ! »

* * *

وأرسل زيوس المظيم إلى أخيه ... بلوتو ... إلـه هيدز ، يرجوه عن أدونيس ويستأذنه فيـه ؛ ولكن بلوتو كان أحرص على الجمال من سكان هذه الحياة الدنيا ، فأبى أن يلبى رجاء أخيه ، فألح عليه ، فلم يقبل . . .

ثم اتفق الاخوان ، زيوس وبلوتو ، على أن يجعلا حياة أدونيس مناصفة ، فيقضى ستة أشهر فى هيدز ، أشهر الخريف والشتاء ، وستة أشهر فى الدنيا ، حيث تأخذ زخرفها فى الربيع وتؤتى أكلها فى الصيف ! !

ولما لقيت ڤينوس حبيبها عائداً أدراجه من دار الفناء قالت له : « أتستطيع اليوم تعريف الحب ؟ » . فقال أدونيس : « هاتى قبلة يا ڤينوس . . . هاتى قبلة ... هاتى ألف قبلة . . . »

دريني خشبة

(١) اقرأ مرثاة شلى (أدونيس) فى كيتس . طبعة أكسفورد ص ٤٢٥

(٢) ذكر شاكسبير أن أدونيس تحول زهرة بيضاء فيها بقع كالدم ، وهذا يخالف اطراد القصة حسب الأسطورة اليونانية

قلعة الرمل

بقلم حسين شوقي

كانا يسيران على الشاطئ غير معْنيين بما حولهما وهما يتبادلان هذا الحديث :

هو - عزيزتي ، إني آسف إذ تأخرت عن موعدك ؛ ولكن صديقاً حميماً لم أره من زمان طويل اعترضني في الطريق واستوقفني ملياً . . .

هي - لا عليك من ذلك ، فليس ثمة ما يدعو للاعتذار

هو - ولكن لماذا أجدك وحدك ؟ لِمَ لَمْ تذهبي إلى السيدة (س) لتأنسي برفقتها ؟

هي - إني أوثر العزلة ، كي أشهد في سكون تلك الصفحة الزرقاء العجيبة المنبسطة أمامي . . .

هو - ولكن البحر ثائر اليوم ، إني لا أحبه في مثل هذه الحال ؛ إنه ليشبه وجه عجوز قد غضّنته السنون

هي - أنت تراه كذلك ؟ . . . أحسبك زعمت لي مرة أنك تحب البحر وهو هائج ، لأنه يشبه قطيعاً من الخراف البيضاء اللطيفة ! . . . .

هو (في حيرة) - هل . . . هل تنزلين إلى البحر ؟

هي - نعم ، وأنت ؟ . . .

هو - أنا سأنتظرك في المقصف ، لأني على موعد هناك ؛ أتأذنين لي في الذهاب ؟

هي - الآن ؟ . . .

هو - أجل . . . .

هي - لك ما تشاء ! . . . (ثم افترقا)

الفتاة في همّ شديد ، لأن صاحبها لم يعد يحبها ؛ إنها لا تشك في أنه بدأ يملّها ، فقديماً لم يكن يسمح لها أن تنزل إلى البحر وحدها وهو كذلك مضطرب مائج ، وهو لم يلاحظ ثوب البحر الجديد الجميل الذي كانت تلبسه ، مع أنه نال إعجاب جميع الذين شاهدوها تخطر به على الشاطئ . . . تنهدت الفتاة قائلة : « آه ! لماذا لم تُخلق القلوب البشرية متشابهة كلها ؟ لماذا خُلق كل قلب يعيش من عواطفه في دنيا وحده ؟ »

وبينما الفتاة غارقة في هذا التفكير ، إذ وقع نظرها على أطفال يبنون قلعة من الرمل ، وهم يهللون ويلغطون فرحين . بدّد هذا المنظر البهيج خواطر الحزن التي كانت تستبد بالفتاة ، فوقفت ترقب في اهتمام عمل الصغار ، ولما انتهى بناء القلعة وضع الأطفال في كل ناحية منها قطعة من الخشب على شكل مدفع ، ثم اختلفوا على جنسية العلم الذي يرفع على القلعة ، إذ كان كل منهم يحاول أن يرفع رايته ؛ وبعد جدال ومداولة ، اتفقوا على رفع راياتهم جميعاً عليها ونال كلٌّ منها حظه من المجد . عندئذ صاحت الفتاة في دهشة : ولكن مُلك أي دولة هذه القلعة ؟ فأجابوا ملك جميع الدول

فقالت الفتاة : آه ! ما أمهركم في السياسة أيها الصغار ! لو أن آباءكم لم يعرفوا الأثرة لأراحوا العالم من مشاكل عدة ! ليت رجال السياسة ظلوا أطفالاً . . . ! ولكن ، ها هي ذي موجة عظيمة تطغى على الشاطئ فتبتلع القلعة بمدافعها وراياتها ؛ فوقف الأطفال لحظة واجمين ، ولكن كم كانت دهشة الفتاة عظيمة حينما رأت هذا الوجوم ينقشع بغتة ، ثم هو ينقلب إلى ضحك ومرح ونشاط ، إذ استقر رأيهم على بناء قلعة أخرى من فورهم ، تكون أروع وأفخم من القلعة الأولى . . كم كانت الفتاة تغبط هؤلاء الصغار على تلك السرعة التي سلوا بها أشجانهم ، إنها تعطي كل ما تملك لكي تتمكن أن تستبدل بقلبها الكليم أحد هذه القلوب الغضة ! ثم أخذت تتذكر طفولتها السعيدة أيام كانت آلامها النفسية لا تدوم أكثر من لحظة . .

الفتاة حزينة ، حزينة جداً ، لأن حبها في دور النزع ، فها هو ذا حبيبها يتأخر عن مواعيده ، وها هو ذا قد بدأ يتعلل بالمعاذير ؛ فهل يكون ذلك إلا المقدمات المألوفة للفراق . . . ؟ الفتاة تذكر في حسرة وألم مقدار ما كان تعلق حبيبها بها في بداية حبهما . . وتذكر كيف كان لا يقوى على فراقها لحظة ، حتى أن أحد أقاربه الأعزاء قد مات فلم يشترك في جنازته حتى لا يفرّق ذلك بينهما وقتاً ما . . ! وكم زعم لها أن وجودها بجانبه ضروري له ضرورة الماء للسمك .. والآن ، الآن ، هو يتلمس الأعذار ليبتعد عنها . . !

ما أغلظ قلب هذا الفتى ! إن هذه الأمواج الصاخبة لأرقّ قلباً منه ، وإنها لترحب بالفتاة على حين يفرّ هو منها ! كم تود الأمواج أن تضمّ إلى صدرها تلك الدمية الجميلة ذات الجدائل

البريد الأدبي

استفتاء السلام

تألفت منذ حين فى انكلترا لجنة سميت « باجنة التصريح القومى » عن عصبة الأمم ومسائل التسليح ، ونظمت استفتاء عاماً للشعب البريطانى عن مسائل السلام الدولى ليعرف العالم إلى أى اتجاه يتجه بعواطفه وتأييده ؛ وتولى رئاستها الفيكونت سسل ، وأنفقت اللجنة مدى أشهر جهوداً عظيمة للدعوة إلى الاستفتاء وتنظيمه ، وجمع الاجابات عن الأسئلة التى طرحتها على الجمهور البريطانى . وقد أصدرت أخيراً كتاباً شرحت فيه جهودها والنتائج التى وصلت إليها ، وهذه هى الأسئلة الخمسة التى طرحت على الشعب البريطانى لابداء رأيه فيها :

١ — هل يجب أن تبقى بريطانيا العظمى عضواً فى عصبة الأمم ؟

٢ — هل تؤيد تخفيض التسليح تخفيضاً عاماً بمقتضى معاهدة دولية ؟

٣ — هل تؤيد الغاء الخدمة القومية العسكرية والتسليح الجوى بمقتضى معاهدة دولية ؟

٤ — هل يحظر صنع الأسلحة وبيعها للفائدة الشخصية بمقتضى معاهدة دولية ؟

٥ — هل إذا أصرت أمة ما على مهاجمة أمة أخرى يجب على الأمم الأخرى أن ترغمها على وقف الاعتداء بالاجراءات الاقتصادية ، وبالاجراءات العسكرية إذا اقتضى الحال ؟

وقد عاونت اللجنة فى عملها عدة من الصحف الكبرى ، فطرحت هذه الأسئلة للاستفتاء ؛ وقسمت اللجنة بريطانيا العظمى إلى مناطق توافق الدوائر الانتخابية ؛ وكانت نتائج الاستفتاء التى نشرتها فى كتابها كما يأتى :

السؤال الأول — أجاب عنه بالايجاب ١٠,٦٢٤,٥٦٠ شخصاً ، وبالنفى ٣٣٧,٩٦٤

السؤال الثانى — أجاب عنه بالايجاب ١٠,٠٥٨,٥٢٦ شخصاً وبالنفى ٨١٥,٣٦٥

السؤال الثالث — أيده بالايجاب ٩,١٥٧,١٤٥ شخصاً ، وعارضه ١,٦١٤,١٥٩

السؤال الرابع — أيده بالايجاب ١٠,٠٠٢,٨٤٩ شخصاً وعارضه ٧٤٠,٦٣٤

السؤال الخامس — أجاب عنه بالايجاب عن الشطر الأول أكثر من تسعة ملايين ، وبالايجاب عن الشطر الثانى أكثر من ستة ملايين ، وأجاب بالنفى عن الشطر الأول نحو ستمائة ألف وعن الشطر الثانى أكثر من مليونين

ولمثل هذا الاستفتاء ونتائجه أهمية عظيمة فى بلد كبريطانيا تتمتع بأعرق الأنظمة الديموقراطية ، ويحسب فيه أكبر حساب للرأى العام ، وتتجه السياسة الخارجية تحت مؤثرات الرأى العام ورغباته . ويتضح من مجموع الاجابات أن الشعب البريطانى يميل بصفة عامة إلى السلام والسياسة السلمية . وقد عقب الفيكونت سسل على نتائج الاستفتاء بمقال عن حالة السياسة الدولية العامة قال فيه :

« إن الموقف الأوربى قد ساء إلى أعظم حد ، وقد أخذ العالم يتحرك نحو الحرب ، وهزت الحوادث المخربة التى وقعت فى الشرق الأقصى كل أنظمة السلام ، وقامت أمة عسكرية (يريد اليابان) تتجاهل المعاهدات الدولية فاستولت على أراض شاسعة من أملاك جارتها ، وتحدت معارضة جنيف بكل نجاح »

« وقد قبلت عدة أمم أوربية نظام الدكتاتورية الذى يدعو

الذهبية ! أتذهب الفتاة إلى لقاء صاحبها فى المقصف ؟ لا ! إنه سوف يستقبلها بتلك الابتسامة المصطنعة البغيضة ! وإن لقاء الأمواج لأحب اليها من لقاء هذا الحبيب . . اصبرى أيتها الأمواج ؟ إن الفتاة الجميلة ذات الجدائل الذهبية تراود نفسها أن تهب لك هذا الجسم الغض ، وماأراها ستمتنع عليك ، وما أراها ستكون لغيرك ... ... وكان انتظار الفتى صاحبته فى هذا اليوم وبعد هذا اليوم عبثاً ...

حسين شوقى

إلى استعمال القوة كأداة صالحة لتسوية المسائل الدولية ، وأنذرت دولتان عظيمتان عصبة الأمم بالانسحاب ، وعاونت القوميـة الاقتصادية التى نشأت عن الأزمة العالمية ، على احياء نظريات العزلة القديمة ؛ والخصومات الجنسية التى تخلق بأشنع العصور الوسطى ، ولاح أن أوربا تنحدر إلى حالة الطائفية القديمة التى أنقذتها منها المدنية النصرانية »

تاريخ للصحافة

كانت جريدة « التيمس » قد أصدرت بمناسبة عيدها الخمسين بعد المائة وهو الذى احتفلت به فى شهر يناير الماضى ، عدداً خاصاً بتاريخ الصحافة من سنة ١٧٨٥ وهو عام انشائها حتى يومنا . وقد لقى هذا العدد الخاص يومئذ رواجاً عظيماً ونفد بسرعة مدهشة حتى أن إدارة « التيمس » رأت أن تعيد طبعه ولكن فى شكل كتاب يصلح للمكتبة . وقد صدر هذا المجلد أخيراً ، وهو فى نحو مائتين وعشرين صفحة ، وهو يحتوى على تاريخ ضاف للصحافة وتطوراتها فى مدى القرن ونصف القرن الذى عاشته الجريدة الانكليزية الكبرى ؛ وقد صدر بصورة فتوغرافية لكتاب الملك جورج الخامس إلى التيمس وفيه يهنئها بعيدها ؛ ونشرت صورة طريفة أخرى منها صورة تخطيطية لمدينة لندن منذ مائة وخمسين سنة حينما صدر العدد الأول من « التيمس » تحت عنوان « السجل اليومى العام » . وقد طبع فى ثوب قشيب فى منتهى الأناقة ، وجعلت منه نسخ مذهبة بديعة تناسب هذا التذكار الصحفى العظيم

آراء جديدة فى التربية

تتحدث الصحف النمسوية فى تلك الآونة عن العلامة المربى (البيدا جوجى) جاك دالكروزى وعن نظرياته فى التربية ، وذلك لمناسبة احتفاله ببلوغ السبعين من عمره . وجاك دالكروزى سويسرى الأصل ولكنه ولد فى ڤينا ونشأ بها فى ذلك العهد السعيد ، عهد شوبرت ويوهان شتراوس ؛ ومال إلى الشعر والموسيقى ، وظهر بطريف آرائه فى التربية . وأنفق مدة الحرب فى ألمانيا ، ولكن نظرياته لم تلق هناك نجاحاً ؛ ثم نزح إلى براج وهنالك ذاعت نظرياته ، وأنشئت المدارس والبرامج الجديدة متأثرة بروحها ، ويرى دالكروزى أن الموسيقى تولد مع الانسان ، وأن الانسان ولا سيما الطفل يحملها فى أعمق مشاعره ؛ ومن ثم ابتكر دالكروزى نوعاً من الرياضة التوقيعية تتأثر بروح الموسيقى التى هى روح الانسان . وتقوم نظرية دالكروزى الأساسية فى التربية على أن الانسان يستطيع الابتكار بطبيعته ، وأن الانسان هو الذى يخلق نفسه ويكونها ، ولهذا يرى أنه يجب أن يعود الطفل الارتجال فى القول والعمل ؛ وهذه نظرية تخالف رأى بروكنر القائل بأن الانسان لا يستطيع الابتكار إلا بعد التحصيل والمران الفنى ، ولكن جاك دالكروزى يبث روح الابتكار فى تلاميذه ، وينظمه كفن ، ويرى أنه خير وسيلة لسرعة البت وتحقيق المجهود ، وإدراك الآراء ، وهو يصقل الشعور ، ويوجد صلة مباشرة بين الروح الذى يتأثر ويوحى ، وبين المخ الذى يفكر ويتصور ؛ وقد دلت التجارب على أن الطفل يعشق الارتجال ، وانه يتفوق فى الابتكار أحياناً على الأحداث ، وذلك لأن ذهنه لم يكن قد صفد بعد بالأصول والقواعد الموضوعة ، ولأن ذهنه يتمتع بالحرية الطبيعية

ولنظريات دالكروزى فى التربية وتكوين النشء أثر عميق فى تربية الجيل الحاضر من الشباب فى النمسا وتشيكوسلوفاكيا م

الكتب

١ — المقنع فى رسم مصاحف الامصار مع كتاب النقط

لأبى عمرو عثمان بن سعيد الدانى (١)

٢ — المختار من شعر بشار للخالديين

نشره وعلق حواشيه الأستاذ محمد بدر الدين العلوى

للأستاذ محمد بك كرد على

تحدثنا فى العدد الماضى عن كتاب التيسير فى القراءات السبع للامام أبى عمرو عثمان بن سعيد الدانى الذى نشره العلامة برتزل . واليوم نتحدث عن كتابه الآخر وهو « المقنع » فى رسم مصاحف الأمصار مع كتاب النقط نشره كذلك العلامة برتزل ، قال المؤلف فى مقدمته : « هذا كتاب أذكر فيه إنشاء الله ما سمعته من مشيختى ، ورويته عن أئمتى ، من مرسوم خطوط مصاحف أهل الأمصار : المدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام وسائر العراق ، المصطلح عليها قديماً ، مختلفاً فيه ومتفقاً عليه ، وما انتهى الىّ من ذلك ، وصح لدىّ منه عن الامام مصحف عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وعن سائر النسخ التى انتسخت منه الموجه بها الى الكوفة والبصرة والشام . وذكر كيف جمع عثمان المصحف ، وروى أن علياً قال : لو وليت لفعلت الذى فعل عثمان . وقال : إن أكثر العلماء على أن عثمان بن عفان لما كتب المصحف جعله على أربع نسخ ، وبعث الى كل ناحية من النواحى بواحدة منهن ، فوجه الى الكوفة احداهن ، والى البصرة أخرى ، والى الشام الثالثة ، وأمسك عند نفسه واحدة . ثم أفاض فى رسم المصاحف وذكر ما حذفت منـــه الياء اجتزاء بكسر ما قبلها منها ، وما حذفت منه الواو اكتفاء بالضمة منها أو لمعنى غيره ، وما رسم باثبات الألف على اللفظ أو المعنى ، وما رسم باثبات الياء على الأصل ؛ وما رسم باثبات الياء زائدة أو لمعنى ، الى ما يتعلق بذلك ، وختم هذا الكتاب بقوله : « فان قيل فلم خص زيد (بن ثابت) بأمر المصاحف ، وقد كان فى الصحابة من هو أكبر منه كابن مسعود ، وأبى موسى الأشعرى وغيرهما من متقدمى الصحابة ، قلت إنما كان ذلك لأشياء كانت فيه ، ومناقب اجتمعت له ، لم تجتمع لغيره ، منها أنه كتب الوحى للنبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه جمع القرآن كله على عهد رسول الله (ص) ، وأن قراءته كانت على آخر عرضة عرضها النبى على جبريل عليهما السلام ، وهذه الأشـــياء توجب تقديمه لذلك وتخصيصه به ، لامتناع اجتماعهما فى غيره ، وان كان كل واحد من الصحابة رضوان الله عليهم له فضله وسابقته ، فلذلك قدمه أبو بكر لكتابة المصاحف وخصه بها دون غيره ، من سائر المهاجرين والأنصار ؛ ثم سلك عثمان رضى الله عنه طريق أبى بكر فى ذلك إذ لم يسعه غيره ، وإذ كان النبى (ص) قد قال اقتـدوا بالذين من بعدى أبى بكر وعمر فولاه ذلك أيضاً وجعل معه النفر من القرشيين ليكون القرآن مجموعاً على لغتهم ، ويكون مافيه من لغات ووجوه على مذهبهم ، دون ما لا يصح من اللغات ولا يثبت من القراءات . . . »

وأتبع المؤلف كتاب المقنع فى مرسوم المصـاحف بكتاب نقط المصاحف وكيفية ضبطها على ألفاظ التلاوة ، ومذاهب القراءة ، بدأه بذكر من نقط المصاحف أولاً من التابعين ومن كره ذلك ، ومن ترخص فيه من العلماء ، ثم عرض لكل ما يتعلق بهذا الباب . وقد وضع الناشر فهرساً للآيات الواردة فى كتاب التيسير وكتاب المقنع وكتاب النقط فجاء مسهلاً للمطالع والمراجع

هذه عناية علماء المشرقيات بكتب الاسلام ، أما خاصة أهله اليوم فساهون لاهون . وليت سادتنا علماء الأزهر والمعاهد المماثلة له فى القطر ، وأساتذة دار العلوم وغيرهم يتروون فى عمل هؤلاء الأعاجم ، وقد كان عليهم هم أن يأخذوا باليمين آثار السلف ليحيوها قبل أن تنتظر فى الخزائن عطف الغرب

اننا مدينون لعلماء المشرقيات من الهولانديين والجرمانيين والفرنسيين والبريطانيين والايطاليين والاسبانيين ، وغيرهم من شعوب أوربا وشمالى أميركا ، بما تفضلوا به علينا من نشر أسفارنا . أحسن الله اليهم بقدر ما أحسنوا لمدنيتنا وآدابنا ؟

(١) المتوفى سنة ٤٤٤ هـ

— ٢ —

عني السيد محمد بدر الدين العلوى من أساتذة جامعة عليكرة الاسلامية فى الهند بتصحيح « المختار من شعر بشار » اختيار الخالديين وشرحه لأبى طاهر اسماعيل بن أحمد بن زيادة الله التُّجيبي الرَّقي من أهل القرن الخامس ، فوقع فى ٣٤١ عدا فهارس قوافى الأبيات والمصاريع وأسماء الشعراء وأسماء الرجال والنساء والقبائل والأصنام والأفراس والجمال . وهذا من الكتب التى يزيد احياؤها مادة الأدب القديم ، وتفيد فى بث الجيد من الشعر والنثر وفصيح اللغة ، وفيه جواب كاف شاف لمن حاولوا أن يحذفوا من كتب القدماء مالم يروه منطبقاً بزعمهم على مصطلح هذا العصر فى هزل الأدب ومضحكاته ؛ فقد نقل من صفحة ٢٠١ إلى ما بعدها قصصاً وأشعاراً من هذا القبيل ، أجاد الناشر ومعلق الفوائد على الكتاب السيد العلوى فى ابقائها بحالها ، على ما تقضى بذلك أمانة العلم ، إذ الناس يحبون أن يروا الكتاب كما ألفه مؤلفه ، لا كما راق ناشره ، وقد يجوّز هذا لنفسه حذف مواضع لم ترقه ، وعبارات لا يستحسن اثباتها أصحاب الذوق الجديد ، فيجئ الكتاب المشذّب على هذا النحو كتاب الناشر لا كتاب المؤلف ، ولو كانت هذه الطريقة من اثبات ما يسمونه الفحش اليوم مما يستنكر لما رأينا الراغب الأصفهانى فى محاضراته ، ولا ابن حزم الظاهرى فى طوق الحمامة ، وهما ماهما من المكانة الدينية والعلمية ، يجوزان أن ينقلا أشياء من هذا القبيل يعدُّها بعضهم فى عصرنا نابية عن حد الأدب ؟ فالناشر المستعرب الهندى إذن جدير بكل احترام واعجاب لعنايته بنشر مصنف قديم على النحو الذى وضعه واضعه

والشكر الكثير للجنة التأليف والترجمة والنشر على احيائها هذه الكتب خدمة للمعارف والآداب سيذكرها التاريخ لجماعة متشاكلين فى العلم والتربية تألفوا على غاية نبيلة واحدة ، وهى خدمة العلم والأدب فى مظاهره المنوعة ؟!

محمد كرد على

خواطر الخيال وإملاء الوجدان

تأليف محمد كامل حجاج

للدكتور عبد الوهاب عزام

الأديب الأريب محمد كامل حجاج له فضل قديم على قراء العربية بما عرفهم من الأدب الغربى فى كتابه الكبير « بلاغة الغرب » وأنا أعترف أنى عرفت الأدب الغربى أول ما عرفته ، فى هذا الكتاب ، وأحسب كثيراً من المتأدبين يشاركوننى فى هذا الاعتراف

وقد أخرج الأديب الفاضل عام أول كتاباً سماه « خواطر الخيال وإملاء الوجدان » ، وهو كتاب من إنشائه يتضمن خمسة وسبعين مقالاً فى موضوعات شتى . والكتاب أربعة أقسام . وليست خواطر الخيال إلا القسم الأول منه الذى يحوى مقالات الربيع ، والزمان ، والزهرة ، والشيطان الجميل ، والأمل ، والنور ، والظلام ونحوها من الموضوعات الخيالية والوجدانية

والقسم الثانى فيه أبحاث فلسفية ونفسية مثل الموسيقى والحب ، الموسيقى والسحر ، الموسيقى والتربية ، أغانى الحب عند هنود أمريكا ، وأكثر مافى هذا القسم يتصل بالموسيقى . وكاتبنا الفاضل له ولع بالموسيقى ، وخبرة بها ، واهتمام بتاريخها . وقد ألف فيها كتاباً طبعه مؤتمر الموسيقى الذى اجتمع بالقاهرة منذ سنتين

والقسم الثالث من الكتاب باب النقد وفيه مقالات كثيرة منها « بين القديم والحديث » ورواية عائدة ، وألف ليلة وليلة ، وعلى ضفاف الكنج ، ونابغة شرقى مجهول ، وفيه تراجم جماعة من أدبائنا فى القرن الماضى مثل عبد الله باشا فكرى ، ومحمود باشا قدرى ، ورفاعه بك ، وعبد الله نديم ، ومحمود صفوت الساعاتى

والقسم الرابع سماه الكاتب متفرقات وفيه أربع مقالات

والأديب الفاضل محمد كامل حجاج مولع بالجمال حيثما تجلى . فهو كلف بالجمال فى الحدائق ، ذو دراية ودُربة فى زراعة البساتين ، وهو كلف بالجمال فى الموسيقى يكثر التحدث بها والكتابة عنها ، وله فيها ذوق سليم . وهو كلف بالجمال فى التصوير وله فيه حسنات . وهو كلف بالجمال فى الفضيلة والأخلاق الطيبة ، كريم الخلق مولع بالتحدث عن الخلق الكريم والدعوة اليه الخ الخ

وهو إلى هذا كله واسع المعرفة بالأدب الفرنسى ، حريص على إقناع قراء العربية بطرفه وروائعه

هذا الكلف بالجمال فى مظاهره المختلفة والبصر بالأدب الفرنسى يتجلى فى صفحات الكتاب . ولست أستطيع تفصيل ما فى الكتاب هنا ولكنى أدعو المتأدبين إلى أن يقرأوا فى الكتاب تفصيل ما أجملت ، وبرهان ما ادعيت ، فالكتاب جدير بالقراءة خليق باهتمام الأدباء وكاتبه جدير منا بالشكر والثناء

عبد الوهاب عزام